أشهر العشاق

بودلير في حياته الغرامية

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

U.B. LIBRARY

848
B338YmA

أشهر العشاق
٣

كميل موكلير

بودلير

في حياته الغرامية

ترجمة : الياس ابو شبكه

منشورات دار المكشوف

للمعرب

تأليف :

افاعي الفردوس

الالحان

روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة

الى الابد

نداء القلب

ترجمة :

اوسكار وايلد امام القضاء

بودلير في حياته الغرامية

صدرت كلها في منشورات دار المكشوف

•

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، آب ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

توطئة

ان عنوان هذا الكتاب دليل على ان صفحاته لا تنطوي على دراسة نقدية أدبية في شعر بودلير أو نثره ، بل تنطوي قبل كل شيء على علايقه بالنساء ، وعلى كيفية فهمه للانوثة وللحب الجسدي أو العاطفي . وبديهيّ انه من الصعب جداً فصل الانسان عن الاديب ، فكلاهما ملاصق للآخر . وانه لمن السهولة بمكان ان نقصّ قصة غرامية عاشها انسان ليس سوى انسان ، ولكن الاديب ليس امرءاً كسائر الناس ، فهو مخلوق مزدوج ـ هو رجل يسكنه أديب ، وهـذا الاديب يتكلم بلسان الاثنين معاً ، وفي أدبه نجد الجواب عن معظم أحجياته وألغازه . ولا بد لنا ، شئنا أو أبينا ، من مراجعة كتاباته لنتفهم اعماله الحسية . فكل ما احسه بودلير وبلاه عبّر عنه واعترف به في قصائده ونثره ومذكراته . فبودلير هو في عداد الذين لا يمكن فصل حياتهم عن استنباطهم الادبي .

لقد افتتحتُ حياتي الادبية عام ١٨٩٠ في وسط ادبي وفني يقال له «الرمزية» كان فيه بودلير بمثابة إله لا يمس . وكنت في الثـامنة عشرة من عمري ، أعجب بشعر بودلير ونثره ، وقد خيل اليّ أني ادركت كل ما فيهما من الجمال ،

ونفذت الى كل ما فيها من العمق . والواقع ان مجموعة «زهرات شرّ» لا يفهمها الا المختمرون الذين عاشوا وعاينوا وشقوا . وقد اتضح لي ذلك حين أعدت قراءتها فيما بعد . ولا أزال واثقاً من أن شاباً حديث السن لا يقوى ادراكه على تجاوز الظواهر في شعر هذه المجموعة الفريدة .

ولئن كنت اخطىء في فهم ما انطوت عليه دفتا الكتاب وفي تفهم شخصية الرجل الذي ألّفه ، فلا مندوحة عن القول بأنه لم يكن في محيطي من يستطيع ان يهديني الى الحقيقة . فبودلير كان قد مات منذ ثلاث وعشرين سنة ، وغمرَ سكوت طويل اسمه وكتابه الذي كان يقرأ بتكتم شديد وينقل تحت المعاطف . وكانت القصة الطبيعية تحتل المسرح ، والشعر يتشحط في تقليد هوغو أو ينكمش في نطاق البارناسية البارد . وما أن حل العام ١٨٨٥ حتى ظهر رد فعل مزدوج مع القصة التحليلية التي جاء بها بول بورجه ، ومحاولات تجديد الشعر الذي كان بول فرلين واستيفان مالارمه يجمعان عناصره ومواده ، وقد اعتمد كل منهما طريقة تختلف عن الاخرى . ولم يكن فيما يختص ببودلير سوى الدراسة الممتازة التي حاول بها بول بورجه إحقاق حقه والتسلل الى اعماق الحقيقة المجردة عن روح هذا الميت المرذول الذي لم يكن النقد الرسمي يتكلم عنه ، اذا تناول

الى ذكر اسمه ، الا كما يتكلم عن مسخ . بيد ان مؤلف بودلير بقي دائماً مدار اعجاب جمهرة صغيرة من الناس . وقد انتقل هذا الاعجاب الى جيلي بكثير من التوءدة والتحفظ . فقد كنا جميعاً مأخوذين بجمال ذلك الشعر العجيب ، عاقدين النية على اطراء الرجل الذي كشف لنا ايضاً عن ادغار بو واعطانا العام ١٨٦٣ تلك الصفحة التكهنية عن «تانهوزر». وكنا كذلك ملتهبين رغبة في الانتقام لسمعة الشاعر ، ولكننا لم نكن نعرف شيئاً راهناً عنه حتى جاء البحاثون المدققون كاوجين وجاك كريبه ، وفيلي غوتيه ، واوكتاف اوزان ، وشارل كوزان ، وادوار شامبيون ، والفونس سيشه ، وجول برتو ، وفرانسوى بورشه فأثبتوا الآراء الاولى التي جاء بها شارل اسيلينو وتيودر بانفيل ، وشجبوا الاكاذيب المغرضة التي اوردها امثال سانت بوف ومكسيم دي كان . وظهرت الرسائل ونُشر ما كان مطوياً ففرغت سمعة بودلير مما تراكم حولها من الاقاويل ، ولكن تبيّن ان بودلير هو الذي تعمد تجسيم هذه الاقاويل ، وهو الذي تلذذ بالافتراء على نفسه والاستهزاء بها .

معلوم ان كل اديب مبتدع يُنكب بمحاكين مشوّهين يخيل اليهم انهم انما يقتربون من نبوغه اذا هم انتحلوا اخطاءه . فهم يتصورون ان كاتباً لا يحتاج الى اكثر من

ان يكون سكّيراً ليعدل بو ، ومتشرداً ليشبه فرلين ، وغامضاً ليواصل مارلامه . فقد خلّف بودلير المنحول طائفة من المقلدين تظاهروا بمظهر المغرمين الصاحين ، او امراء الكسل والسأم ، او فرسان الضباب والفجور . ففي قصائد بودلير بعض التصنع والتفاوت في القالب والتعبير ، ولكن اتساع خياله وسموّ بلاغته ودقة نظره ليست مما يجارى . وكان ان الصور الفاجعة التي ادخلها على الادب حملت الناس على ان ينظروا اليه نظرتهم الى خليفة من خلفاء الادب الكافر الملعون او الهالك . فتألم في نفسه كثيراً من هذه المبالغة في تصويره . وبقيت الاساطير تحوم حول الشاعر حتى توفاه الله ، فهبّ صديقاه بانفيل واسيلينو لانقاذ سمعته ووضعه في المكان الجدير به ، وحذا حذوهما من ذكرنا من البحّاثين المدققين .

لقد قصرت همي على إظهار علايق بودلير بالانوثة والحب . ولكن هذه العلايق تحتل مكاناً عظيماً في ادبه . وثمة ابواب لتفهّم هذه العلايق لم تكن معروفة قبل العمل الاستقصائي الطويل الذي شهدته طوال خمس وثلاثين سنة . فهناك وراثة بودلير ، وعوامل القربى التي اثرت فيه ، ودراسة حياة النساء اللواتي عرفهن ، ورأيه في الانوثة بوجه عام ، ونقله هذا الرأي الى شعره . وهناك ايضاً الحقايق الواقعة

التي تفرض نفسها فرضاً بالرغم من رغبته في الكذب على نفسه وعلى الآخرين . فالتدقيق في كل هذا يمضي بنا بعيداً في تحليل روح قاست من الشقاء امرّه . فبودلير كان من اشقى الناس جميعاً ، ولكن كبرياءه كانت تأبى عليه الظهور بمظهر من يوحي الشفقة . اما اليوم وقد عرفنا كل شيء فلم يبق بوسعه ان يرفض منا تلك الشفقة التي كان يأباها ، راكماً الاخطاء والتحديات ليخفي بؤسه العظيم . والواقع انه ليس في الناس من يستحق الشفقة اكثر من هذا الساخر . ولكن هذه الشفقة لا ينبغي لها ان تنسى ما يجب لها من الاحترام . فهذا المسكين ، هذا المعوز المرذول الذي توارى قبل الاوان في ابشع انحطاط جسديّ وعقلي ، كان اميراً من امراء الادب ، مهر العالم برائعة عبقرية ، بجوهرة لا عهد للناس بمثل تألقها . فلنبعد عن ذكراه قذارة الاساطير الكاذبة ، ولنسعَ من غير ان نكفّ عن محبته والاعجاب به ، — ولكي نتمكن من معرفة حقيقة الاخطاء التي كفرت عنها حياته الاليمة — للتسلل الى أعماق سرّه ، هذا السر الذي سيجلوه هذا الكتاب .

١

اذا شئنا إن ندرك كيف كانت حاسية بودلير فلنعاينه منذ ولد حتى أدرك سن البلوغ ، ولنبـــدأ بالتعرف الى الاشخاص الذين ولد منهم .

أنهى فرانسوى بودلير ، والد الشاعر ، دروسه في مدرسة سنت منهولد الاكليريكية . وما عتم الامر أن عيّن مدرساً في معهد سنت بارب بباريس ، وكان في نحو العشرين من عمره . وبعد قليل استدعاه الدوق ده شوازول براسلان لتأديب اولاده ، وخصّه بمعاملة حسنة . وكان صديق كوندورسه وكابانيس . وكان يتردد كثيراً على هلفيسيوس . فتأدب بالآداب الفلسفية والسياسية الحديثـــة . ولما اقبلت الثورة الكبرى لقيت مبادئها فيه عوناً مسموع الكلمة . وكان له في الاحزاب الثورية رفاق استعان بهم على مساعدة اصدقائه المعتدلين الذين حافظ على وفائه لهم . وكان أن أدرك البؤس عائلة شوازول براسلان فاقتسم بينها وبينه المـــال القليل الذي كانت تدرّه عليـــه دروسه في الرسم والتصوير ، وعمل ما بوسعه للحيلولة دون مصادرة أملاك هذه العائلة التي أحسنت اليه ، كما حاول إنقاذ حياة كوندورسه . وقد حفظت له

عائلة شوازول براسلان هذا الجميل . فلما استتب بها الامر في عهد الديركتوار والقنصلية كافأته بتعيينه امين سر للجنة الادارية ومراقباً لمجلس الشيوخ . وفي العام ١٨٠٣ تزوج فتاة تدعى روزالي جانين ورزق منها ولداً سماه كلود الفونس . وكلود الفونس هذا أصبح فيما بعد قاضياً خطيراً . وتوفي في العام ١٨٦٦ . ويؤثر عنه انه كان يكره أخاه من ابيه شارل بودلير . وبقيت القطيعة بين الاخوين اثنتين وعشرين سنة ، أي من العام ١٨٤٤ حتى وفاة كلود الفونس .

في العام ١٨٠٥ أصبح فرانسوى بودلير رئيس ديوان في مجلس الشيوخ بمعاش قدره عشرة آلاف فرنك في السنة ، أي خمسمائة ليرة ذهبية . وأفردت له دار جميلة في شارع فوجيرار . وفي العام ١٨١٤ توفيت زوجته تاركة له ثروة لا بأس بها ، فطلب إحالته على التقاعد . وكان صديقاً لعائلة بيرينيون يتردد عليها في دارها باوتوي ، ويتردد عليه أفرادها في داره بفوجيرار . وكان ربّ هذه العائلة قد تبنّى ابنة يتيمة تدعى كارولين ارشامبودوفاي ، ولدت في العام ١٧٩٣ من ضابط متقاعد يدعى شارل دوفاي ومن آنسة تدعى فوايو لاكومب . وكانت هذه الابنة كبيرة الاعجاب بفرانسوى بودلير . فبعد مرور خمس سنوات على وفاة زوجته طلب يدها للزواج ، وكانت في السابعة والعشرين من عمرها

وكان في الثانية والستين . وفي العـــام ١٨٢١ ولد شارل بودلير من هذا الزواج العجيب . وبديهي انـــه اذا كانت الرغبة والمياقات ترضى بمثل هذا الزواج فالطبيعة تأباه ولا بدّ لها عاجلاً أو أجلاً أن تظهر عاقبة رفضها . ولهذا التفاوت الكبير في السن بين فرانسوى بودلير وزوجته الثانية أهمية في ايضاح بعض طبائع شارل بودلير الفيزيولوجية . فهو ابن هوى شهواني من رجلٍ لم ينهكه الافراط ، ولكنـــه أراد بعد حياة بورجوازية معتدلة أن يتعرف الى لذائذ الغرام ...

أما أفراد عائلة الام فلم يعرف عنهم شيء . وقد أورد بودلير في مذكراته الخاصة فقرة جاء فيها : « كان اجدادي مجانين او مدخولين وقد ماتوا جميعاً ضحايا أهوائهم الجموحة . » وعبثاً حاول السيد اوجين كريبه أن يتوغل في هذا السبيل فقال إن آل دوفاي تحدروا من عيال انكلونورماندية نبيلة أدركها الانحطاط ، وان والد كارولين كان آخر أفراد هذه العيال . ولكن هذا القول لا يستند الى أيّ دليـل . وكل ما يعرف من الامر أن كارولين دوفاي عاشت عيشة امرأة متزنة ، معتدلة ، حتى الثانيـة والسبعين من عمرها . ولكن الفرق الكبير في السن بينها وبين زوجهـا كافٍ لحملنا على التفكير . ففي العام ١٨٦٤ كتب بودلير الى احد اصدقائه يقول : « أنا مريض بسبب الاخطاء التي ارتكبها أهلي . وماذا

يرجى من ابن امرأة في السابعة والعشرين ورجل في الثانية والستين ؟ خمس وثلاثون سنة بين امي وأبي ، فتأمل ! تقول لي إنك تشتغل بالفيزيولوجيا مع كلود برنار ، فاسأل استاذك ما رأيه بثمرة زواج من هذا النوع ! »

والواقع أن بودلير كان يتذرع بهذه الذريعة متجاهلاً أنه بذل كل ما في وسعه ليهدم صحته بالخمر والتبغ والافيون والنساء والسهر وحياة الخمّارات . وقد لا يتمكن العلم ابداً ان يوضح لماذا يولد ابن بورجوازي مسنّ وبورجوازية شابة فتولد معه موهبة عظيمة من مواهب الفن ، في حين ان الوفاً من امثال هذا الزواج لا تعقب الا بلهاء معاتيه . فتكوين رجال الفن لا يزال سرّاً غامضاً في نظر العلماء . وانه لمن اهواء الطبيعة ان تُسكَب اجل مخيلة وانبل مقدرة في ابناء الفلاحين او العمال . فهبوط النعمة عليهم لا يدرك سره انسان .

لم يكد شارل الصغير يعرف والده حتى توفي هذا الاخير في بيته عام ١٨٢٧ . فبقي الولد وحده بين امه والخادمة العجوز ماريت ، هذه المرأة الطيبة التي ظل يذكرها طوال حياته والتي خصّها في « زهرات شرّ » بالقصيدة الرقيقة التي يستهلها بقوله : « الخادمة ذات القلب الكبير ... »

وكانت السيدة بودلير ، وقد ترملت في الثلاثين من عمرها ،

على جانب كبير من الجاذب . وكان شارل يحبها حباً يقرب من العبادة ، ويفخر برؤيته اياها متبرجة تنضح جمالاً وعطراً ولديها كثير من الحرائر والحلى والفراء . وبديهيّ أن يرى نفسه ، وقد استيقظت فيه عوامل الحس من غير ان يعلم ، سعيداً الى جنب هـــذه المرأة الشابة العذبة التي استرجعت بسرعة مرحها ونشاطها . فقد كانت تحترم السيد بودلير ولا تجهل أنها فقدت فيه عوناً لها وعضداً ، ولكنه على كل حال كان في الثانية والستين حين مات في المخدع الزوجي .

كان كل شيء جمالاً وغبطة مع هذه الام الشابة الجميلة. فكثيراً ما كانـا يطوفان باريس في المركبة ويعودان كالعاشقين ، فيجدان البيت دافئـــاً مضاءً ، وماريت الأمينة ساهرة على كل شيء .

ولما جاء فصل الصيف تركت السيدة بودلير مسكنها في شارع سنت اندره ديزار واستأجرت داراً صيفية في نوبي.

كان السيد فرانسوى بورشه ، وهو من الشعراء ، أحسن من كتب عن بودلير وأجاد وصف ذلك التكوين للحب في روحه ، تلك النشئة البريئة لمفهوم الانوثة تحت ستار المحبة البنوية . وقد قال بودلير لأمه بعد ثلاثين سنة : « ما اجمل ذلك الزمان ! »

ولكن ...

هل كان ذلك الزمان جميلاً في نظر الارملة بودلير ؟ كانت في الواقع سعيدة او مطمئنة على الاقل . كان لديها ما يقوم بأودها ، وبيت موفور ، وخادمة ممتازة ، وابن جميل واصدقاء ، وعافية . على انها كانت تملك جسداً ، جسد امرأة جميلة في الخامسة والثلاثين من عمرهـــا . وهذا الجسد بقي سليمـــاً بالرغم من انه لم يعط الا ثمرة واحدة ولم يعرف اللذة التي تتطلبها كل امرأة في تلك السن . وهل بالامكان ان تبقى امرأة على مثل هذا القسط من الجمال والشباب أرملة الى الابد ؟ أوليس طبيعياً ان تفكر في تأمين بيت لها ؟ فالاداب البورجوانية لا تنكر هذا الحق ، والاصدقاء يريدونه لها .

وفي احد الايام قالت الام الجميلة لولدها الذي لم يجزر شيئاً : « قريباً ترى هنا يا صغيري شارل ، رجلاً سيكون لك بمثابة أب ثان . فيجب عليك ان تحبه لانه سيحبني كثيراً ولاني احبه انا ايضاً . وسترى اننا سنكون سعداء نحن الثلاثة . » ولم تلاحظ اية كارثة احدثتها هذه الكلمات في نفس ولدها ، واي حلم جميل هدمته في عينيه ! فلم يبك ولم يعترض ، بل اومأ برأسه ايماءة رضى ، وصمت صمتاً غريبـاً . ولم تلاحظ ايضـــاً اي تبدل طرأ على نظره ، فكارولين لم تكن قادرة على قراءة مثل هذا النظر الذي انطبعت به

عيناه الى الابد. فقد كانت عاشقة كما يحق لأشرف امرأة ان تكون. ففي الماضي تمكن سحرها وهي يتيمة فقيرة من إغواء عجوز متصابٍ، واليوم يغوي سحرها وهي ارملة موفورة رجلًا في التاسعة والثلاثين من العمر، جميل الطلعة، مستقيم الخلق، سليم القلب.

كان القومندان اوبيك جندياً باسلًا حارب في اسبانيا والنمسا خلال الحملة الفرنسية، وفي واترلو. وكان يحمل جملة اوسمة في عدادها وسام ضابط في جوقة الشرف، ويتصف بمزايا البسالة والولاء والخبرة الديبلوماسية. وقد رقي فيما بعد الى رتبة قائد فرقة وعين سفيراً. ولا شك في ان اكبر دليل على كبر قلبه انه تزوج أرملة وتعهد ولداً ليس ولده. وهذه الارملة لم يندفع اليها بعامل اللذة الجنسية فحسب، بل كان يحترمها ويحبها ويحب ابنها.

تزوجت كارولين القومندان اوبيك بعد مرور عشرين شهراً على ترملها. وفيما كانت ارملة ذلك العجوز الطيب تتذوق ليلة عرسها الحقيقية، كان في البيت نفسه ولد جموح يتشنج في عذاب الحب المخدوع ويبكي على سعادته المنطفئة لاعناً امه وهو يشعر بانه يحبها اكثر من ذي قبل، متوسلًا لها، متهماً اياها في صمت كأنه الجحيم. وكثيراً ما درس العلماء نفسية ولد تزوجت امه، ولكن تلك الليلة من تشرين

عام ١٨٢٨ قررت مستقبل بودلير الروحي وكانت حاسمة في توجيه شخصيته . ولا يهمنا أن نعرف أمصيباً كان ام مخطئاً . فقد كان مخطئاً في عرف بعض الناس ، ومصيبـــاً في نظر نفسه . لقد احب من غير ان يقيس حبه ،واذا هو قد انخدع واصبح لا يريد الايمان بامرأة . وانـه لطبع غريب ومزاج أخرق ، ولكن الامر كان كذلك . ولو ان كارولين تزوجت اي رجل غير اوبيك لكان شارل ابغضه كما يُبغَض اللص وكما يبغض المزاحم .

٢

في اليوم التالي كان شارل قد وضع خطته وهي ان يعلن حرباً لا هوادة فيها على العدو الممقوت حتى الموت ، اي على اوبيك . وليس بوسع امرىء أن يجد له في ذلك عذراً . فقد كان همّ اوبيك وزوجته أن يسعدا شارل ويربياه التربية الصحيحة التي تصيره رجلاً . ولم يستطع اوبيك ان يفهم لماذا يضمر له هذا الولد الغريب مثل هذا الشر ، ولماذا ينفر منه ولا يفكر الا في اهانته وتحقيره .

اما شارل فكان كلما كبر وتكونت في نفسه شاعريته الذاتية تجسم فيه غضب «أوريست» منتقماً لابيه من امه ، وجنون «هملت» مفكراً في الوسيلة التي تمكنه من قتل المختلس الذي احتل سرير امه وسرق تاج ابيه . ولم يكن في السيدة اوبيك المسكينة شيء مما كان في كليتمنستر أو في الملكة الشكسبيرية ، كما انه لم يكن في اوبيك شيء مما كان في اجيست أو في الطاغية الدانماركي ، سوى ان بودلير لم يكن يكلف نفسه الاصغاء الى ضميره ليسمع الصوت العادل يقول له انه يبالغ كثيراً ، وانه يشوّه الحق ، وانه يكذب ، وان الغضب لا يسدي نصيحة ، وانه يسم حياة زوجين لم

يرتكبا ذنباً، ويعكر طمأنينته، ويجر على نفسه العذاب. بل كان يذهب الى انه لم يكن يحق لأمه، وقد انجبت ولداً مثله، ان تتزوج مرة ثانية. ذلك ان كبرياء كانت تصور له انه ما جاء الى العالم إلا برسوم إلهي، وانه كان يجب على امه الشابة ان لا تفكر في سوى راحته وسعادته. وكل من يحب ذاته كان يرى من العدل ان يترك هذه الام وأن ينكرها حالما يقع على امرأة او على عشيقة. وسرعان ما تحولت محبة الذات المكبوتة الى صرخة تطلق اللعنة على كل امرأة تلد شاعراً ولا تشعر بانها ولدت مسيحاً. ولم تكن السيدة اوبيك المسكينة بالمرأة التي تستحق اللعنة، سوى ان الغيرة التي كانت تتأكل نفس ولدها كما تتأكل نفس العاشق سمّت حياتها الى الابد.

ولكننا لم نصل بعد الى الكارثة، فشارل لا يزال في الآونة الحاضرة غلاماً موفوراً يعيش هادئاً في كنف أمه. اوبيك في افريقيا يحارب في جيش بورمون الذي احتلّ أجله وأكسب سلطان كارلوس العاشر مجداً جديداً. وبديهي أن تصرف السيدة اوبيك شطراً كبيراً من وقتها في التفكير بذلك الذي يخاطر بحياته وتحبه حباً عظيماً، فيشعر شارل في أعماق نفسه بأن «مزاحمه» الباهر اختلس كل ما بقي في قلب أمه.

ويعود اوبيك فيرقّى الى رتبة ليوتنان كولونيل ويرسل الى ليون ، فيصحب معه عائلته لأن الهواء الأصفر كان يتفشى في باريس . وفي ليون يوضع شارل في مدرسة داخلية . ولماذا في مدرسة داخلية ؟ لو ان الامر في يد كارولين لآثرت غير ذلك ، ولكنّ لاوبيك رأيه في النظام وليس لزوجته الا ان تطيع . وبديهيٌ أن يحمل شارل هذه البادرة على محمل السوء فيردّها الى جمود أمه وشراسة عمه . ولكنه يخضع للامر ويسلك في المدرسة جادة الاجتهاد ، ويبدر منه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، ذكاء عجيب يُشيع الغبطة في اساتذته .

وتنطلق في العام ١٨٣٤ حركة العصيان في ليون فتقمع بعنف . ويشترك اوبيك في قمعها فيرقى الى رتبة كولونيل . وفي العام ١٨٣٦ يعيّن في أركان حرب باريس فينقل اليها عائلته ويذهب بشارل الى معهد « لوي لوكران » ، ويقدمه الى الرئيس قائلاً : « أهبك تلميذاً يشرّف معهدك ! » وفي الواقع أن اوبيك كان يعتقد كل الاعتقاد بأن شارل على جانب كبير من الذكاء وإن يكن غريب الاطوار .

وفي معهد « لوي لوكران » يبدي شارل اجتهاداً كبيراً وينال في المباراة العامة سنة ١٨٣٧ جائزة في الشعر اللاتيني يغتبط بها قلب أمه وعمه . على ان نظام المدرسة الصارم

كان يرهقه . وكان يشعر في نفسه بميل شديد الى الشعر لا يدري أحد من أين جاء . وقد انضجه انطواؤه على حقده العنيف ، فأخذ يتمرّد على النظام ، وبلغ بتمرّده عليه حدّاً حمل المعهد على طرده في العام ١٨٣٩ مما أثار حفيظة اوبيك. وما عتم الامر ان احرز شارل شهادة البكالوريا . وقد لمح فيما بعد الى أن الفضل في فوزه يرجع الى « اكتسابه عطف » زوجة أحد الفاحصين . واكبر الظن أن هذا الادعاء لا يخرج عن نطاق تخيلاته الكثيرة ، ولا يمكننا ان نستنتج منه اي شيء عن منشأ احساسه الشهواني . ومهما يكن فلا مندوحة عن القول بان الاحساس الجنسيّ استيقظ فيه وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره .

لما نال شارل شهادة البكالوريا خيّل الى عمّه انه سيتمكن من الاخذ بيده ، وفاتحه في الامر قائلاً له انه سيضع تحت تصرفه ما له من النفوذ ، وانه لن يعتم الامر حتى ينخرط في السلك الديبلوماسي . فرفض شارل قبول اية خدمة من عمه قائلاً له انه يريد ان يكتب ، ان يكون مؤلفاً لا اكثر ولا اقل . وبدل ان يرى القائد امامه شاباً لين العريكة وافر التهذيب ، رأى رجلاً يحجب وراء تهذيبه حقداً لا طعم له ولا لون . فتأثر في اعماق نفسه من غير ان يدرك الاسباب التي تحمل هذا المخلوق الغريب على الوقوف منه

مثل هذا الموقف المرهق . ولكن اوبيك تذرع بالصبر قائلاً في نفسه ان ابن زوجته سيعدل ولا شك في المستقبل ويصلح نفسه . ومما زاد في طمأنينته ان شارل لم يبلغ بعد السن التي تجيز له التصرف بثروته فيرتكب ما يخشى عليه من الحمق . ورأى ان افضل وسيلة هي ان يترك له الحبل على الغارب مدة من الزمن فيسرح ويمرح على هوى نفسه وينال من بسطة الحياة القسط الوافر .

ولكي يمكنه عمه وامه من كل هذا فتحا له اعتماداً عند الخياط والاسكاف وصانع القبعات ، واعطياه دراهم اسبوعية او شهرية . وكان شارل جميلاً يحب العطور والثياب الجميلة ، فاخذ يعاشر طلاب الحي اللاتيني . وسرعان ما عرفت مقاهي الضفة اليسرى زبوناً جديداً ما عتم ان ذاع صيته لبحبوحته ورفاهيته وسهولة خروج البدرة الذهبية من يده . ولم يكن في هذا ما يدعو الى الاعتراض . ولكن هناك « مسألة النساء » ، فالى اين ذهب المرّفه شارل بودلير ؟

كان بامكانه ان يقع على حسان متأنقات او على امرأة متزوجة يستهويها شعره وما في عينيه السوداوين ووجهه الشاحب من اسباب الاغواء . ولكنه آثر ان ينحدر الى اسفل دركات اللذة ، الى ابشع النساء واقذرهن ، كأنه اراد ان ينتقم لعاطفته النسائية الاولى التي احسها الى جانب

الام التي خانته بحسب ظنه ، فلم يشأ ان يعرف من المرأة الا ناحيتها القذرة ليمحو من مخيلته اية صورة نقية لها . وقد قيل ايضاً ان بودلير ما اختـــار ابشع حطم القاذورات والشوارع الا نزولاً على اوامر طبيعته التي كانت تميل الى اثارة الفضائح واشاعة الدهشة . ولكن لا مندوحة لنا عن الوصول الى استنتاج اخير قد يكون اصح الاستنتـاجات جميعا . فشارل بودلـــير المتحدر من ابٍ عجوز لم يكن ذا مزاج صحيح ، بل كان بارد الاعصاب يستطيع ان يعيش عيشة طهر مستديم . وكان يصوّر له انه من المحتّم عليه ان يعشق ولا يشعر لهذا العشق باية حاجة جسدية . وبما انه لم يكن واثقاً من التصرف كما يشاء بحاسته الجنسية فقد كان متهيباً خجولاً أشد ما يخشاه شيوع فشله وعجزه . ومعلوم ان فكرة الحب وفكرة اللذة الجسدية تفترقان عند الذين يشقون ويتألمون حين يرون حـاستهم الجنسية لا تلبي نداء ارادتهم .

وبديهيٌ أن مثل هذا الخجل يمكن أن يزول في احضان النساء اللواتي يحترفن بيع اللذة ولا يبالين بشيء . فما دمن يتناولن الثمن فليس لهنّ إلا ان يستسلمن ويسكتن . واذا مني الزائر بفشل جنسي فلا يكلفن انفسهن الهزء به . وهذه الصيانة لكرامة الرجل ، هذا الوثوق من السماح للنفس بكل

ما ترغب فيه ، كافٍ لبثّ الطمأنينة في نفس مخلوق لا يصدر خجله الا عن برودة اعصابه .

ولننفذ الى اعماق الجرح فنرى في القرارة الامل المخجل في عمليات الحب التي تستطيع قهر خمود المراكز العصبية الخاصة ، الامل في امور لا يجرأ على طلبها من نساء يحفظن بعض الحياء حتى في اشد اوقات اللذة ، في امور قد يرفضن القيام بها وقد يجهلنها ايضاً . وهذه العمليات التي من شأنها ان تثير الشهوة المكبوتة ، كلما مضى بها المرء تطلب المزيد منها ، مثله في ذلك مثل آخذ المورفين او الكوكايين يحتاج دائماً الى مضاعفة الجرعات ليستمر مفعولها .

وصل بودلير الى هذه الحالة وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره . كان مريضاً وتعساً وعاجزاً ، يحتاج الى طبيب وصديق يتمتع بكل ثقته . سوى انه لم يستطع الالتجاء الى احد لان صديقه الوحيد كان كبرياؤه ، هذه الكبرياء التي كانت تمسكه عن ان يكشف سره لمخلوق . فانطلق يعبّ من شبق القاذورات ، وينظر الى هذه الاخيرة بعين نافذة وسخرية موجعة فيخرج لنا ذلك الشعر الرائع الذي لم يعدله شعر من نوعه .

ولكم في الحياة قصاص . فما كاد بودلير يبلغ العشرين حتى شعر باعراض السفلس . وقد ثبت انه ابه لهذا المرض

وبقي طول حياته يداوي نفسه منه . وفي نهاية الامر أورثه هذا المرض الشلل الذي قتله .

ورب متسائل اية امرأة جاءته بهذه الهدية التعسة ؟ يقال انها سارة اليهودية التي لم يمر بها مرور العابر ، وكان اصدقاؤه يخشون عليه منها . ويقال ايضاً انها فتاة من الحي اللاتيني صوّرها المصور ديروى وتغنى بها تيودور ده بانفيل في قصيدته «الى مغنية صغيرة في الشوارع » . وقد سماها بودلير في احدى قصائده « زهرات شرّ » باسم « الشحاذة البرصاء » . ويقول بودلير في قصيدته هذه ان تلك الفتاة المجهولة كانت ذات جسد مريض مزروع ببقع برصاء ، وانها كانت تحتذي حذاء خشبياً وترتدي خرقة قصيرة .

وفي هذا ما يكفي للتدليل على كيفية دخول بودلير فيما كان يسميه الحب ، وعلى ان هذا الفتى الثقيف الذي كانت العبقرية تنمو فيه نموها السريع ، ولم يكن يستهويه الا كل نادر وكل خارق وعجيب ، لم يسلك الا مسلك صغار البورجوازيين الشهوانيين الحمقى . ولكان بالامكان انقاذ هذا المتعجرف ، هذا المتشائم ، لو ان امرأة حقيقية احبته باخلاص ودفأت قلبه بحنانها العذب وبددت آلامه . وسنرى فيما بعد ان هذه المرأة مرت بحياته ، ولكنه لم يعرفها ولم تلحّ عليه .

٣

كان بودلير قد وصل الى هنا بمغامراته القذرة الأولى حين حصل حادث عائلي بدّل مجرى حياته .

كان حقد شارل على عمه يزداد مع الايام . وكثيراً ما كان هذا الحقد ينفجر عن حوادث مكدرة ، الى ان حصل أخيراً حادث على جانب من الخطورة رواه مكسيم دي كان في مذكراته . ولكن مكسيم دي كان تعوّد الكذب وتشويه الحقائق ، فلا يستطاع الاستناد اليه . ويلخص الحادث في أن الجنرال اوبيك وجه في أثناء العشاء ملاحظة صارمة الى شارل . سوى أن الأمر الذي لم يؤكد هو ان شارل لم يتحمل ملاحظة عمه فهجم عليه ليخنقه ، فصفعه اوبيك صفعة أوقعته في نوبة عصبية شديدة . ومهما يكن ، فالأمر الأكبر هو انه عقد مجلس عائلي تقرر خلاله ارسال شارل الى مكان بعيد لاقصائه عن موبقاته وعن عشرته الرديئة . وكان ما يزال لاهله حقوق عليه اذ لم يكن بلغ السن القانونية . وقد خيّل اليهم أن سفرة طويلة في البحر تفيده جسدياً وعقلياً . فلم يمانع شارل ، وركب من مرفأ بوردو « باخرة بحار الجنوب » المسافرة الى كلكوتا بقيادة

القبطان سور .

ولما عاد بودلير من هذه السفرة قصّ على رفـــاقه في المقاهي أشياء غريبة عنها ، منها ان البحارة عاملوه معاملة رديئة صارمة ، وان منهم من كان يعرض عليه عروضاً كثيراً ما كانت ترغمه على الدفاع عن نفسه . وقد لفق بودلير حكايات كثيرة من هذا النوع ليحمل الناس على الاعتقاد بان عمه اراد ان يوقع به شراً . والواقع ان عائلته دفعت مبلغـاً كبيراً لكي يعامل معاملة حسنة . ولدينا نسخة كاملة عن التقرير الذي ارسله القبطـان سور الى اوبيك ، والقبطان سور مثال الصدق والاستقامة . ولكن بودلير كان عازماً على المضي في احقاده الى النهاية . فنزل في جزيرة موريس وواصل الى جزيرة بوربون ، ولكنه رفض النزول الى اليابسة وأصرّ على العودة . فلم يمانعه القبطان سور ، وعهد به مع ما بقي من المبلغ الذي تسلمه من اوبيك الى قبطان الباخرة «السيد» العائدة الى بوردو . وقد استغرقت رحلته هذه تسعة أشهر .

وكثيراً ما بحث الكتاب تأثير هذه السفرة في ادبـه . وفي الحقيقة ان في جملةٍ من قصائد «زهرات شر» حنينـاً مطبوعاً بطابع شرقي قد يكون نتيجـــة تأملات بودلير الكئيبة حين كان يصغي بغرق الى اصوات العبقرية الناشئة

في نفسه تتصاعد مع هدير الامواج في تلك البحار النائية. اما ما كتبته مخيلة بودلير عن كلكوتا التي لم يذهب اليها قط ، وما اختلقه مكسيم دي كان بقوله مثلاً ان بودلير اضطر ليعيش الى بيع مواش من الجيش الانكليزي ، فلا ينبغي الاخذ به . فاكاذيب دي كان وتخيلات بودلير نفسه اضلت مؤرخي هذا الاخير لانها حاكت خيوطاً كثيفة حول حقيقة الشاعر .

في شهر نيسان ١٨٤١ ، أي بعد مرور شهرين على عودته ، بلغ بودلير السن القانونية فدفع اليه الجنرال اوبيك ما يعود اليه من الارث وهو خمسة وسبعون الف فرنك ، أي ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون ليرة ذهبية . وبعد شهرين ترك بودلير البيت غير مكلف نفسه تهيئة أمه لتلقي الصدمة . الا انه أبقى لها ورقة جافة يقول فيها إنه ذاهب تلبيةً لنداء القلم . فالكبرياء والحقد خنقا كل عاطفة كريمة في صدره . فقد بقي حتى الدقيقة الاخيرة يقف موقف الجاحد الرديء من أمّ ممتازة ورجل كريم لم يقدرا على فهم تلك المأساة التي شاء هذا المعذّبُ نفسه ان يمثلها منذ السابعة من عمره .

ذهب بودلير نحو المجد ، فلم يدركه الا بعد موته . وظل طول حياته معذباً . ولم يكن كتب الا بضع قصائد متبانية القيمة ، ولكنه كان واثقاً من أنه سيضع روائع ،

وان اسمه سيخلد الى الابد . فهذا الرجل الذي كان يشك في كل شيء لم يشك لحظة في تفوقه الادبي . وكان متعطشاً الى العمل ويعتقد انه اذا لم يكن بدر منه حتى ذلك الحين إلا معاشرة الخلايق المنحطة فالذنب في ذلك يقع على اهله . أما وقد اصبح حراً فسيضرب المثل بانتاجه ودأبه . وقد قال لأمه في الرسالة الجافة التي ابقاها لها انه سيضطر على الغالب الكثير ان يعيش عيشة صارمة .

استأجر بودلير مسكنا صغيراً في جزيرة سان لوي ، ولكنه لم ينس أن يتدبر الخياط والاسكاف وصانع القبعة . وان يكن صحّ عزمه على سلوك جادة الاقتصاد فهو لم ينس انه من المرفهين ، ومن كان من المرفهين لا ينبغي له ان يشتغل في وقت معين كالموظفين والمستخدمين . ومضت الايام وبودلير لا يعمل شيئاً . وكان يؤجل دائما العمل الخطير الذي يحلم به ، وبقي يؤجله الى ان استنفد ثروته واضطر الى الاختيار بين العمل المجدي والجوع . ولم يكن بودلير كسولاً ، ولكنه كان مصاباً بالرغبة وبالعجز في وقت واحد على غرار قابليته الجنسية المهتاجة والمشلولة معاً .

ما كاد بودلير يستقر في مسكنه الجديد حتى عاد الى النساء الساقطات . ففي مساء يوم بعد ان تناول العشاء مع صديقيه اورلياك وجيرار ده نرفال ، ترك المطعم وسلك طريق

البانتيون . وبعد هنيهة وقف أمام مسرح صغير كان يمثل فيه فصل تافه . ولكن المثقف بودلير كثيراً ما كان يقبل على التوافه ، فدخل . وما كاد يسمع بعض الحوار حتى ظهرت على المسرح خادمة فقالت ثلاث كلمات وانصرفت .

لم يكد بودلير يقع نظره على هذه الممثلة حتى شعر برعشة لم يعرف سبباً لها ، فبحث عن اسمها في البرنامج فاذا هي تدعى الانسة جان دوفال ، ولكن ما الفائدة من اسمها ؟ وكان بوده ان يذهب اليها . على أنه آثر ان يتصرف تصرف الفتيان الوافري التهذيب . فابتاع ضمة أزهار وارسلها اليها مرفقة ببطاقة يعرب فيها عن أمله ان تستقبله في اليوم التالي .

ومن هي جان دوفال ؟ لا احد يعلم . يقال انها ولدت في سان دومنغ ، فمن جاء بها الى باريس ؟ وماذا كان من أمرها قبل أن احترفت تمثيل ادوار الخادمات في ذلك المسرح الحقير بشارع البانتيون ؟ لا أحد يعلم . اما عن شكلها الخارجي فلدينا جملة معلومات وصلت الينا من شهود عيان ، قال بانفيل : « هي فتاة زنجية شاهقة الطول ، جميلة القوام ، رائعة الطلعة ، في مشيتها ظرف وحشي يتقاسمه شيئان من السماء والحيوان . » ولكن بانفيل يجمّل كل ماتقع عليه عيناه ، ومن خصائص عبقريته انه لم يستطع أن يرى شيئاً أو مخلوقاً على حقيقته .

واليكم ما كتبه براردون : « أذكر ان جان دوفال كانت زنجية مشرقة ، ولم تكن على جانب كبير من الجمال . شعر أسود كثيف ، وصدر مسطح ، وقامة طويلة ، ومشية بشعة . » وما كتبه جول بويسون : « كان خداها متهدلين ، ولونها أصفر باهتاً ، وشفتاها حمراوين ، وشعرها غزيراً متموجاً . »

وهناك رسوم بالريشة لبودلير نفسه ، فقد كان يحسن الرسم وقد ورثه عن امه كارولين ووالده فرانسوى بودلير . على ان هذه الرسوم اذا نمت على شيء فعلى شهوانية بهيمية : عينان سوداوان كبيرتان ، شعر حالك متمرد ، انف مستقيم ، شفتان سميكتان ، ثديان شديدان متباعدان على صدر هزيل ، ردفان سمينان على قامة رقيقة لينة . جسد فاسقة لا تعرف الشبع ، يعلوه وجه خبيث محتال لا سمة عليه للقلب او للعقل .

هذه هي المرأة التي استهوت الشاعر المثقف شارل بودلير!

لاشك في ان جان دوفال استغربت كثيراً تلك الازهار وتلك البطاقة المشبعة بعاطفة الاحترام . فمهنتها في ذلك المسرح الحقير لم تعودها مثل هذا التكريم . وازدادت دهشتها حين جاءها ذلك السيد في اليوم التالي وراح يكاشفها باعجابه . على انها راحت تتفحصه بعين فتاة خبيرة ، فتبين لها من رشاقته وشحوبه واناقته انه ابن عائلة ، وقالت

في نفسها : ربما كان غنيمة ... ومع هذا لم تستسلم في الحال ، بل تظاهرت بانها لم تكترث له كثيراً . والغريب في الامر ان بودلير ، وكان اصبح خبيراً بامثال هذه المساومة القذرة ، لم يفهم شيئاً منها . وفي نهاية الامر مضت به جان الى مسكنها في شارع سان جورج .

لا نزاع في ان بودلير تعلق جان دوفال لان مهارة هذه المرأة تمكنت ، للمرة الاولى ولا شك ، من التغلب على ضعفه الجنسي ووفرت له لذة كاملة ، ساحقة ، ناهكة . ففي جان دوفال وجد بودلير المرأة القادرة على ان تنتزع من لحمه واعراقه ولذات أحدّ من الثلج والحديد » ، لذات كثيراً ما حلم بها من غير ان يأمل في تذوقها . ووجد فيها على الخصوص مخاوفة على جانب من الخبرة تستطيع ان تثير كوامن لذاته او ان تستفزّها . فلا شك ان في حادث دوفال وبودلير — هذا العاجز المسفلس — شيئا من حادث الشابة دي باري ولويس الخامس عشر الذي كان مصاباً بالسفلس .

على ان دي باري رأت ان تجذب زبونها الملكي بحركات كلها عفرتة وخفة ، خلافاً لجان دوفال ، فقد احست ان عشيقها الصامت المترفع يحب الصمت والامتثال ، فعزمت على ان تكون صامتة ممتثلة . وكان ذلك لحسن حظها لانها كانت من جنس العبيد ، لا تتحلى بأي شيء من العلم او من الذكاء ،

وكل ما يهمها ان تنال حاجتها من الدراهم .

ورب متسائل : أحقيقة ان جان دوفـــال وقعت ، بعد علايقها القذرة ، على « المنفق » الرصين في شخص هـذا الابله العابس ؟

بدون ريب . وفي الحال اراد بودلير ان تترك المسرح لتكون له بكليتها . وبديهي ان تركهـــا المسرح لم يكن خسارة كبيرة عليها اذ ماذا كانت تنال منه واي مستقبل باهر كان ينتظرها عليه ؟ سوى ان بودلير لم يلح عليهـا في ان تساكنه ولم تلح عليه في ذلك هي ايضاً . وكل ما طلبه ان يجيئها في الليل . وانتقل من جديد الى جزيرة سان لوي فاستأجر مسكنـــاً صغيراً في فندق بيمودان الفخم بشارع دانجو ، وانث لجان مسكناً آخر في شارع مجاور ، شارع المرأة العديمة الرأس .

وراح بودلير ينفق بدون حساب ، ويسلك حياته كشاعر وكمترف بين ليلتين ناهكتين . وبما ان دخله لم يكن يكفيه فقد لجأ الى ما لا بد من اللجوء اليه ، الى الدين . وكان ثمة مراب يدعى اروندیل فأخذ الشاعر يستدين منه ويوقـع له سندات ، غير آبه لما ينتظره ، غير مدرك ان هذه السندات ستورثه ندماً شديداً .

وكان ان اطمأنت جان دوفـال الى مستقبلها ، فلم تبق

تلك المرأة الصامتة ، بل تحولت الى ثرثارة لا تمثل دورها كـ « معبودة عجيبة ، سمراء كالليالي » — على حد قول بودلير في احدى قصائده — الا في ساعات الشبق حين تستأنف وهي عارية عمل الخزي والنهك الجسدي الذي يزيد تمسك عشيقها بها . وكان ان تملكت السوداء هذا الاخير فاستسلم الى الشرب . وكان يحب النبيذ الابيض فاضاف اليه كثيراً من الكحول والقهوة . ولم يكفه تدخين التبغ فاضاف اليه الافيون ثم الحشيش . واشترك في نادي الحشاشين بفندق بيمودان غير مدرك ان الذين يشاطرهم ذلك المخدر الاخضر هم أشد بنية منه .

وكان الداء الزهري يعمل عمله الفيزيولوجي الخفي فيهدم صحته بسرعة ...

وكانت امه تجتمع به احياناً . فكارولين اوبيك المسكينة كانت تواصل الصعود الى جلجلتها عالمة حق العلم ان ابنها الهائل ، ابنها الحبيب ، اصبح لا يستطيع العودة اليها ، الى زوجها . ولكنها لم تكن تقوى على الفراق . فكانت تضرب له مواعيد تارة في الحدائق العامة وطوراً في المتاحف اذ لم يكن بالامكان ان تجتمع به في بيته خشية ان تجد عنده الزنجية . ولم يكن بودلير ليجهل انه ليس من اللياقة ولا من الحشمة وضع سيدة محترمة كالجنرالة اوبيك امام

فتاة لجان دوفال وجهاً لوجه في البيت الذي يقيم بـه ابن الاول وعشيق الاخيرة .

كانت احاديث الام والابن عذبة وموجعة في آنٍ واحد ، وكانا يفترقان كئيبين . سوى ان هذه الاجتماعات كثيراً ما كانت تذكر بودلير بحياة أكرم وأشرف . فلا يوشك ، حين يعود الى مأواه ، ان يستبشع المرأة التي حطت سمعته وكرامته وان يستنكرها حتى تصمت وتتعرّى ...

وفي اثناء ذلك كان بعض الشعر يولد بقليل او بكثير من الجهد ، فلا يفتأ الشاعر يُعمل فيـــه يدَ الصناع ، ينقحه ويهذبه بتدقيق من أوتي من العبقرية اكثر بكثير ممّا أوتي من الموهبـــة . وكانت قوّة التجلي العجيبة تظهر في ذلك الشعر الى جنب قوّة التصوّر ، فيبدو معها صاحبه في الحياة مختلّا وفي الادب شاعراً نسيج وَحدهِ ، كبيرَ التفاوت ، تارةً أخرق غبياً ، وطوراً استاذاً لا يجارى :

« انتِ يا من دخلتِ الى قلبي الشاكي كطعنة خنجر ،
انت يا من جئت قويةً كقطيع من الشياطين ، مجنونةً متبرجة ،
لتجعلي سريريك وملكك في روحي المتّضع ،
ايتها المرذولة التي اتمسك بها
كما يتمسك السكير بزجاجة الخمر والديدان بالجيفة ،

ملعونةٌ ، ملعونةٌ انتِ ! »

هذا الذي كان يكتبه بودلير وهو خارج من ذراعي جان ، ولكنه كان يحبها . كان يحبهـا على طريقته فيما هو يحتقرها ويحتقر نفسه . سوى ان حناناً عجيباً كان يستفيق فيه احياناً فتتجلى جان دوفال وتصبح « زهرة الشر » موضوع شعر جميل رائع كقصيدة « الشعر » ، جزّة الزنجية البهيمية :

« ايتها الخصل ! ايها العطر المثقل بالكسل والفتور !

ان روحي ليسبح على عطرك يا حبيبي ،

كما تسبح ارواح الآخرين على الموسيقى ... »

وفي جملة الروائع التي اوحتها جان الى بودلير قصائد « العطر الغريب » و « الافعى التي ترقص » و « شبح » و « الشرفة » وسواها . وما « ازهار الشر » سوى قصة واعتراف كتبا شعراً . ولقد أحسن المؤرخون بالتسلل الى اعماق الآلام والبؤوس التي قاساها الشاعر ، فلولا ذلك لما وضحت حقيقة الكتاب . فهذا الشعر الذي بلغ به بودلير حد الكمال الفني وهو بعد في الثالثة والعشرين من سنيه ، هذا الشعر الذي مضى على الكثيرين من العشاق اكثر من نصف قرن وهم يتغنون به بين ضمتين ، ولد من غرام شاب نابغ ومريض لا يجهل انه يغوص في حمأة الدنس فيندم ، ولكنه لا يستطيع امتلاك نفسه .

واذا شئنا ان ندرك اي بون شاسع بين الواقع والتصور فلنحاول ان نتخيل الزنجية الشهوانية الكسول تصغي الى هذه الابيات يلقيها على مسمعها رجلها وهو ليس بالاحمق في كل ساعة :

« ان العطر ليحوّم على جسدكِ
كأنه يحوّم حول مبخرة ،
فانت تفتنين كالمساء
ايتها الجنية المظلمة الحاوة .

آه ! إن أقوى شراب
لا يوازي كسلك ،
وانك لتجيدين الملاطفة ،
التي تحيي الاموات !..

انك تمزقينني ، يا سمرائي ،
بضحكة ساخرة ...

وانني لاضع غبطتي الكبرى
وعبقريتي ومصيري
تحت حذائيك الحريريين ،

تحت قدميك الحريريتين الفاتنتين .

وأضع تحتهما كذلك روحي التي شفيتها ،
أنت ايها النور واللون ،
يا انفجار الحرارة
في صقيعي الاسود !

لا ، لم تشفَ روحه فهي قد سُمّت ، ولكنه يحب هذا السم . ومهما يكن فالشعر مدين لمخلوقة بائسة خسيسة بمجموعة من القصائد ستبقى ما بقيت اللغة الفرنسية . والعجيب أن جان دوفال لم تكن تفهم شيئاً من هذا الشعر ، فقد أعطت رجلها الوحل – على حدّ قوله – فحوّله الى ذهب .

٤

فيما كان بودلير يواصل حياة الشبق ، وحياة البطالة في الشوارع والمقاهي ، والثورات الجمالية ، كانت القصائد تتكون على مهل فلا يشعر بها احد او يكاد لا يشعر بها احد ، ولا يمكن ان تدرّ بدرة . وكان المال ينفد بسرعة ، بل كان نفاده من السرعة بحيث ان بودلير تلقى صباح يوم نبأ اوقعه من الغضب في أزمة حادة . ومفاد هذا النبأ ان عمه وأمه رفعا امام المحاكم دعوى يطلبان فيها اقامة الحجر عليه !

لأن يخطر مثل هذا الفكر لاوبيك ، اوبيك العدو الاثيم ، فالامر ممكن الاحتمال . اما ان يخطر لكارولين فانها لخيانة مخجلة ترتكبها بحق ابنها بعد الخيانات الكثيرة التي سبقتها !

والواقع ان السيد والسيدة اوبيك كانا يعتقدان ان شارل بذّر منذ ذهابه اربعين الف فرنك (ما يقرب من الفي ليرة ذهبية) ، وانه لم يتعاطَ اي عمل ، ولا يبدو انه سيتعاطى عملاً ما ، بل يهلك صحته وشرفه وماله مع امرأة سافلة . فمن واجبها ان يؤديا اليه آخر خدمة يستطيعانها بانقاذهما اياه من الهوة التي يتمرغ فيها ، او بصيانتها على الاقل ما بقي من الارث الذي تركه فرانسوى بودلير .

وفي ايلول ١٨٤٤ عينت المحكمة السيد انسيل ، محافظ نوبي ومن اقرباء بودلير ، حارساً قضائياً . وكانت الثروة الباقية خمسة وثلاثين الف فرنك تقرر ان يتقاضى شارل ربعها لا اكثر ولا اقل ، وهو مئتا فرنك في الشهر ، اي عشر ليرات ذهبية . وقد صرف الشاعر حياته في مخاصمة السيد انسيل وفي شتمه ، لان السيد انسيل كان مثال الحراس القضائيين لا يلين لاي توسل ، ويصم اذنيه عن طلب اي مبلغ اضافي .

واذ لم يكن بود بودلير ان يعدل عن جان وعن حياة البذخ التي تعودها فقد اخذ يستدين من جديد ليحتفظ بعشيقته وبحقه في الكسل . راح يستدين من رفاقه ومن مصرف الرهونات . ولجأ الى « جمعية رجال الادب » يطلب منها سلفات على اشغال لم يسلمها قط . ثم لجأ الى امه يطلب منها دراهم . وبقي يرهقها بطلباته الى آخر نسمة من حياتها . وكان حلالاً للزنجية ان تأكل بدون خجل من رزق والدة عشيقها .

ولكن هذا كله لم يكن كافياً ، فاتفق بودلير وجان بوقاحة لا وقاحة بعدها على تمثيل مهزلة مؤسفة . فكاشف بعض رفاقه برغبته في الانتحار . ولما شاع النبأ بعض الشيوع ارسل الى احد اصدقائه وصية له واوصاه بعشيقته . وفي اليوم

التالي ، فيما هو يتناول قدحاً مع جان في خمـــارة بشارع ريشيليو ، طعن صدره بخنجر طعنة خفيفة وتظاهر بالاغماء . وفي الحال حضر رجال الشرطة فحملوه الى المفوضية . وبعد ان اطلع المفوض عائلة «القانط» على امره ارسله محمّلاً الى منزل الجنرال اوبيك .

وبديهيٌ ان يوقع هذا المشهد السيدة اوبيك في حزن يقرب من اليأس ، فقد كانت تحب ولدها بالرغم من فجوره حباً يقرب من العبادة . وفيما هي تبكي وتنتحب ، جاء الجنرال فتفطر قلبه . وجيء بالطبيب فأكد ان الجرح لا يدعو الى اي قلق . وانصرف اوبيك وزوجته الى تدليـــل شارل والترفيه عن نفسه ، وأكدا له أنهما سيدفعان ديونه ، وألحّا عليه في البقاء .

وفي أثناء الاضطراب العائلي هـذا كانت الزنجية تنتظر مطمئنة في بيتها . وقد اخبر الاديب العالم لوي مينار أنـه رأى جان سكرى بالتبغ تنتظر نتيجة الحيلة التي دبرتها مع عشيقها . وحالما شفي هذا الاخير من جرحه الطفيف واطمأن الى أن أمه وعمّه اللذين خدعهما قد دفعا ديونه ، ترك البيت للمرة الثانية . ويقول لوي مينار ان بودلير لقيـــه مرة في الطريق فقال له : « لقد تركت عائلتي من جديد ، ياصاحبي . ففي بيت أمي لا يشربون الا نبيذ بوردو ، وانا لا استطيع

الاستغناء عن نبيذ بورغونيا . » وأكبر الظن أن هذه المعثرة هي أشنع جميع المعاثر التي ارتكبها بودلير .

على ان بودلير لم يكن أشدّ منها وفاءً . فقد كانت تخونه بكل سهولة . وفي جملة الذين خانته معهم أحد حلاقي الحيّ . وهذه الخيانة أثارت سخط بودلير الذي كان يخونها هو بدوره مع النساء الخوارق ، اذ يظهر أنه كان يؤخذ بالقزمات والعملاقات من النساء ، وكثيراً ما كان يلمح الى علايقه بهنّ بأساليب فجّة وعبارات فاحشة . ولا يستبعد ان يكون استوحى قصيدته الرائعة « العملاقة » من حادثة له مع احدى الخوارق . ولا يستبعد كذلك أن يكون الفضول قد دفع بودلير نحو الساديّة . فالمركيز ده ساد لم يكن سوى مجنون مجرم ، والذين اتبعوا بدعته كانوا خلعاءَ وبلهاء مثله . وبديهيٌ ان يسعى مغرم ضليل عاجز او نصف عاجز كبودلير لان يقع في نظريات هذا المركيز على امكانيات جديدة في اللذة ، ولكن بقية من الاستقامة والشرف والخوف ايضاً حالت بينه وبين تحقيق شيء من تلك الامكانيات .

ولسنا نعرف شيئاً عن المخلوقات اللواتي كان يواصل تجاربه معهن إلا أنهن ينتسبن الى البؤر والقاذورات . وانه لمن المؤسفات حقاً ان نرى بودلير المترف المرفه حبيب

العطور والثياب المهفهفة لا يحجم عن وضع انفه في الحُرق المرقعة والجلود القذرة . فمن تراها تكون تلك المجهولة صاحبة الاحرف ج . ج . ف التي قدم اليها بودلير « الفراديس المصطنعة » وواحدة من اجمل قصائده في « ازهار الشر » ؟ وفي هذا الكتاب قصيدة تحت عنوان «سيزينا» . وكل ما نعرفه عن سيزينا هذه انها امرأة ايطالية تدعى السيدة نيري وهي من صديقات السيدة ساباتيه التي سنتكلم عنها طويلاً . وفي الكتاب ايضاً قصيدة صغيرة بعنوان « الحريف » يخاطب فيها الشاعر امرأة باسم مرغريت . فمن تراها تكون مرغريت هذه؟ يبدو انها لم تكن من رعاع الناس، لان الشاعر يوجه قصيدته او كأنه يوجهها الى امرأة قادرة على فهمها . وقد لا تكون مرغريت سوى صورة وهمية من الصور التي كان الشاعر يتخيلها . وفي الكتاب اسم «برت» صديقة العهد الاخير ، التي سنتكلم عنها فيما بعد . ومن تراها تكون دلفين وهيبوليت، «المرأتان الهالكتان» اللتان اوحتا الى بودلير قصيدة هي من روائع الشعر الفرنسي ، كما اوحت اناكتوريا ، وصيفة سافو ، الى سوانبرن قصيدة هي من روائع الشعر الانكليزي ؟ فهل اخترع بودلير اسمي تينك المرأتين البادينتي العزة كأميرات راسين ؟ معلوم ان بودلير كان كبير العطف على امثال هاتين الضالتين في صحراء الغريزة الجنسية ، وقد شاء ان

يجعل اسميها عنواناً لكتابه ، فنصح له بعض اصدقائه بأن لا يفعل ، ففكر في تسميته بـ «اليمبوس» ، ولكن الاسم بدا غامضاً . وفي نهاية الامر وجد الكاتب هيبوليت بابو عنوان «أزهار الشر» . وهذا التوفيق أنقذ اسم هذا الكاتب الخامل من النسيان .

لقد وصفنا عهداً كالحاً من حياة بودلير . ولحسن الحظ لم يلبث الشاعر ان خرج منه . فالحاجة ارغمته على الاقلاع عن حياة البطالة وعلى الشروع في الانتاج الادبي وهو في الرابعة والعشرين من عمره .

في الرابعة والعشرين !

من يصدق ان امرءاً يشيخ ويقنط من الحياة ويكتب روائع خالدة قبل ان يتجاوز الرابعة والعشرين من سنيه ؟ وهل بوسع القراء أن يصدقوا ان اجمل وأعمق وأكمل ما في «ازهار الشر» من القصائد كتب في الثانية والعشرين أو في الثالثة والعشرين ؟

اعطى بودلير أولى مقالاته لجريدة « كورسير ساتان » أو «القرصان الشيطان» وكانت كبيرة الرواج في ذلك الزمان . وسرعان ما نبه ذكره بفصلين كتبهما عن معرضي التصوير لعامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ . وكان بودلير وافي التهيؤ لكتابة

هذين الفصلين ، فقد ألمّ بهذا الفن الماماً كافياً اذ انفق قسماً من ثروته على شراء اشياء فنية نادرة . ولم تمنعه حياة الشبق والبطالة من ان يطيل النظر في لوحات اللوفر . وبما انه لم يزر ايطاليا ولا اسبانيا ولا هولندا ولا انكلترا ، ولم يكن التصوير الفوتوغرافي أذاع الروائع الاوروبية كما هي الحال اليوم ، فقد راح الناس يتساءلون مستغربين عن سر ذلك الالمام العجيب الذي جعل بودلير اعظم ناقد فني في فرنسا تفرّد في خلق مقياس صحيح للجمالية .

وثمة سرٌ آخر وهو الخلاف العظيم بين الرجل والكاتب. فالرجل هو مريض بأعصابه ، لا يعرف كيف يعيش . هو متهكم ، ضليل ، متجعرف ونصف مجنون . والكاتب هو من المتفوقين في الادلاء بالاحكام السليمة ، يصوغ في أمتن وأنقى نثر ما يخطر له من الخواطر في الفن . وهو الوحيد الذي استطاع ان ينظر نظراً جلياً في زمنه وان يتجه توّاً الى ما هو جميل وأهلٌ للبقاء .

هذا الشاب هو استاذ في الجمالية . هذا المجنون هو حكيم . هذا المختلّ هو ، حين يكتب ، الضبط نفسه ، والذوق نفسه ، والاتزان نفسه .

يذهب الى معرض للصور ، ثم يخرج منه ويدخل الى خمارة فيطلب نبيذاً أبيض . وفيما هو يشرب ويدخن يكتب

بهدوء وتؤدة صفحاتٍ رائعة هي في الواقع أجزم ما كتب في المقارنة بين « أنغر » الذي يحترمه و « ديلاكروى » الذي يجلّه . وكان الناس يعترفون بأهلية بودلير ويضعونه في المقام الاول من النقّاد الفنيين . ففي ذلك العهد البريء السعيد ، ذلك العهد الذي كان يخالف عهدنا هذا في أنه يرفع الفن عن درك المساومات القذرة ، كانت بضع صفحات كافية لتقرير مقام رجل ووضعه في موضعه الحقّ .

شجّعه الاقبال على قراءة مقالاته فراح يساهم في تحرير جملة صحف . ونشر بضعاً من قصائده التي كان يلقيها على مسامع أصدقائه . وأخذ يبذل كل ما في وسعه ليكسب لنفسه مركزاً ولو ادبياً . سوى أن حياته الخاصة بقيت تسوء ، فالدائنون كانوا يرهقونه ، وكان يهرب منهم فيعيش في الفنادق . وقد ظلّ كذلك حتى موته .

أما جان دوفال فكانت تكتفي بالقليل إذ لم تكن مطامحها تتجاوز الخمور والتبغ واللذات الليلية . وكان باستطاعتها أن تخرج لرصد الفرص شأن الفتيات اللواتي من جنسها ، ولكن الخمور كانت قد عملت عملها فيها فأذبلتها وجعلتها غبية بلهاء .

لقد رأيت من الاستقامة والضرورة أن أخفي في هذا

الكتاب شيئاً من أخطاء بودلير وعيوبه . ومن الاستقامة والضرورة أيضاً أن أبيّن كم قاسى من عواقب هذه الاخطاء والعيوب ، ولم يجد أحداً يعينه على ما به . فأنسيل بقي مصراً على ان لا يدفع له فلساً واحداً فوق الدخل الشهري الضئيل ، ولم يكن اوبيك ليحب ان يسمع باسمه بعد مهزلة الانتحار وتركه البيت العائلي مرةً ثانية ، ولم يكن بوسع السيدة اوبيك ان ترسل اليه إلا قليلاً من الدراهم يستعين بها في اواخر الشهر على سد رمقه .

كان بودلير بحاجة الى تعزية ، ولكن أين كان باستطاعته ان يجد هذه التعزية ، هذا الاسعاف الروحي ؟ فعدا الخلجة الناهكة العقيمة لم يكن بوسع جان ان تقدم له سوى الهذر والثرثرة وسوى طلبات دراهم . وكانت مسيحية بودلير من الغرابة بحيث لم يكن بالامكان أن يتوقع منها أية تعزية . كانت ديانته نظريةً أشبه ما تكون بالمانوية . كان يؤمن بوجود ابليس وبوجود الرداءة والشر ، وكان يعتقد ان الحب العاطفي كلام باطل ، وان الحب جسديّ صرف ، وليس الحب الجسدي سوى شكل من الاشكال الشيطانية للشر .

بهذه العقيدة وصل بودلير الى الايام المحمومة التي تقدمت ثورة ١٨٤٨ . فسلك فيها مسلك رجل أحمق . ولم يكن ينتظر منه غير ذلك . فبودلير كان يجهل كل شيء من شؤون

السياسة . وبصفته رجل فن كان يحتقر الديموقراطية والبورجوازية معاً . ولكن له بعض أصدقاء بين الشبان الجمهوريين كلوي مينار ، وثوري ، وليكونت ده ليل ، وبيار ديبون . وكان يكره العسكريين لأن اوبيك منهم ، فضلاً عن ان جميع اسباب التمرد كانت مجتمعة فيه ، فهام في الشوارع ، خلال الفتنة ، حاسر الرأس . وسرعان ما وجد نفسه الى جانب الجمهوريين ، فتبع الجمهور واستفاد من نهب مخزن اسلحة فاستولى على بندقية صيد وزنار خرطوش ، ولكنه لم يحشُ البندقية . وفي الواقع ان بودلير كان يلهو ساخراً من كلا الطرفين . وكان يصرخ بملء فيه : « يجب ان نقتل الجنرال أوبيك ... »

ماذا كان الجنرال اوبيك يفعل خلال هذه الحوادث ؟ كان يواصل الاستفادة من حظه السعيد . فقد عينه العهد الجديد سفيراً في اسطنبول ، وهذا التعيين صدر عن شاعر كبير هو لامرتين ، بطل الساعة .

ليس من الصعوبة في شيء ان نتبين شدة الغضب التي استحوذت على بودلير حين اتصل به النبأ ، أيكون أوبيك سفيراً ، وسفيراً للجمهورية ، ويكون الشاعر الذي عينه شاعراً خطيراً هو لامرتين ؟ في كل هذا ما يحمل بودلير على ان ينتزع من نفسه كل محبة للعهد !

سافرت كارولين اوبيك مع زوجها الذي كان يعبدها ، وهي بعد في الخامسة والخمسين من العمر وعليها مسحة وافية من الجمال – وبقي بودلير المتمرد في مكانه ايضاً ، لا مال لديه ولا مركز له !

وفي الحقيقة ان اكثر ما كان يشغل بودلير منذ ١٨٤٥ لم يكن التفاؤل الثوري ولا حظه العاثر ، بل كان نقل مؤلفات الكاتب الاميركاني ادغار بو الى اللغة الفرنسية . وهو عمل شاق تسخر له بودلير غير متوقع منه اي مغنم ، وقد واصله حتى موته ، مضحياً لاجله بشطر كبير من احلامه الادبية . وهذه التضحية التي بذلها لاذاعة اسم اديب مجهول مات بائساً على بعد الوف الكيلومترات من بلده هي ولا شك اكرم وانبل جهد ادبي عرف حتى ذلك العهد ، قام به مختل يتكلف القول بأن لا قلب له وبأنه يضحك من العاطفيات .

ما كادت الفتنة تضع اوزارها حتى عاد الدائنون – وكانوا قد ذعروا حيناً – الى ارهاق بودلير بمطالباتهم المزعجة . ففكر لكي يتملص منهم في الالتجاء الى الارياف ، فيكتب هناك القصص التي ليس لديه منها الا العناوين وهي : المعشوقة العذراء ، تعاليم مسخ ، الجريمة في المدرسة ، المسوخ ، الحب قاتل ابيه ، المشنّعة المعبودة ، عشيقة الابله ، المرأة السافلة .

ولكن هذه القصص بقيت عناوين لحسن حظ بودلير وحظ الادب بوجه عام . واذا دل اعلانه عن هذه العناوين على شيء فانما يدل على شدة احتقاره للناس الذين تنحصر مقدرتهم – على زعمه – في الاحتفال بالاشياء التافهة القذرة . ومهما يكن فقد صح عزمه على ان يعتكف اعتكافاً مجدياً في ديجون . ولا يعلم احد لماذا اختار ديجون . وما كاد يصرف بضعة ايام في احد فنادق هذه المدينة حتى ضجر وخاب أمله .

وفي تلك الاثناء صدر مرسوم بنقل الجنرال اوبيك من سفارة اسطنبول الى سفارة مدريد . فجاء الجنرال الى باريس وصرف فيها مدةً أتاحت لشارل ان يجتمع بأمه . وكان ذلك في شهر حزيران ١٨٥١ . وبديهيٌ ان امه مذنبة وأنها تركته ، فلعنها ، ولكنه لا يزال يحبها ويشوقه ان يقوم معها ببعض نزهات في ضواحي باريس . سوى ان السيدة اوبيك ما لبثت ان سافرت الى اسبانيا ، فعاد شارل الى جان وعاش معها في غرفتها .

وكانت جان قد شاخت وغلظت وزادت دناءتها وابتذالها . فهي بشعة وكذابة ورديئة وخليعة ، تواصل خيانة عشيقها مع من هبّ ودبّ من الرعاع ، ولا تكتمه ذلك بل تشتمه لانه أصبح لا يقدر حتى على اطعامها . وكثيراً ما كانا يتخاصمان ويتضاربان ، ولا يضع حداً لصراخهما الا صراخ

الجيران .

ومساء يوم ضرب بودلير جان بالمسرجة فأدماها ، ولم يستطع في النهاية مواصلة العمل في ترجمة بو ، فحمل أوراقه ومعاجمه الانكليزية ومضى . ولكنه لم ينقطع عنها الانقطاع كله ، بل بقي الى النهاية يسعف بأشيائه القليلة تلك المخلوقة البائسة التي أحبها .

عاد بودلير الى طوافه الاليم من فندق الى فندق ، هزيلاً رث الثياب ، محروم العيش ، مقروح النفس ، لا يدعمه الا الرغبة الصوفية في احياء ذكر ادغار بو ، هذا الشاعر المسكين الذي كان بودلير ينظر اليه نظرته الى أخٍ روحي له . وما عتم الامر ان أخذت جان تزوره لتؤنبه وتنتزع منه ما بقي في جيبه من الدراهم . وفي غرة العام ١٨٥٣ احيل الجنرال اوبيك على التقاعد ، فترك سفارة مدريد وعينه الامبراطور نابوليون الثالث شيخاً ورفعه الى رتبة ضابط كبير في جوقة الشرف .

وكان ان اشتد اليأس في قلب بودلير فأحس بحاجة قصوى الى امه ، فصار يتردد عليها في شرش ميدي بباريس ، فيطلب مئل دراهم ويفاتحها بحاجته الى محبتها وحنانها .

كانت الحياة القاسية قد حطمت قناعه الزجاجي وفلّعت سحنته المتعجرفة ، فصار يشعر بحاجة الى الحنان ، الى الحب

النقي ، الى الحب الروحي ، بعد حياة الشبق والفجور بين ذراعي عشتروت السوداء .

وعندئذ بدأ الشطر الثاني من حياته العاطفية ، وسنرى كيف سيصادف في نفسه تفتّحَ شكل جديد من الشعور المسيحي . فلئن يكن بودلير مذنباً فهو تعسٌ مقدار ما هو مذنب . وكلما مرت السنون سوداء نمت في قعر نفسه الرغبة الشديدة في الايمان .

٥

بدأت هذه الازمة بحاجة غامضة وان قوية الى الاستسلام ليس الى جسد امرأة فحسب ، بل الى قلب امرأة قادرة على ان تفهم معنى الشوق ، الى الحب النقي .

كانت ماري دوبرن ممثلة شابة تلعب على مسرح «الغيته» . وكانت نابغة بفنها وجميلة مقدار ما كانت عذبة الخلق ذات استقامة وحشمة . وكانت تسعف بعملها والدين افعدهما الفقر والمرض . فشغف بودلير بها وصار يجتمع اليها في مقصورتها ، وقدم اليها قصيدة « نشيد الخريف » وهي من روائع « ازهار الشر » ، ولكن القدر لم يشأ ان يستمر بودلير طويلاً في حبه لهذه المخلوقة الصادقة المستقيمة المحبة .

وهناك ماري اخرى كان بودلير يهتم بها في اثناء اهتمامه بماري دوبرن . وكل ما نعرفه عنها انها كانت « نموذجاً » وأن بودلير لم يذكرها الا باسم ماري x... ويظهر ان ماري x... هذه قررت العدول عن تعاطي حرفتها عقيب حديث دار بينها وبين بودلير . ويظهر ايضاً انها كاشفت الشاعر بانها تضمر لرجل آخر حباً عظيماً . وهذه المكاشفة خلقت بينها وبين بودلير قصة تثبتها رسالة غريبة بعث بها الشاعر اليها ، ونجتزىء

منها شطراً يساعدنا على التسلل الى اعماق نفسية بودلير :

« أمن الممكن يا سيدتي ، أن لا اراك بعد اليوم ؟ هذا السؤال هو اهمّ ما يشغل افكاري لاني صرت في حالة لا اقوى معها على تحمل غيابك ، فهو حرمان لقلبي أليم .

« حين علمت انك عـــدلت عن حرفتك ، واني كنت السبب في هذا ، شعرت بحزن عظيم ، واردت ان اكتب اليك ، مع اني لا احب كتابة الرسائل لانها تورث الندم على الغالب . ولكن ما همني ما دمت قررت نهائياً ان اكون لك الى الابد ؟

« أتعلمين أن حديثنا الطويل يوم الخميس كان غريباً حقاً ؟ فهذا الحديث هو الذي بدل حالي وحملني على كتابة هذه الرسالة .

« رجل يقـول : احبك ، ويتضرع ، وامرأة تجيب : انت تحب ؟ أنا ، ابداً ! رجل واحد له حبي ، والويل لمن يجيء بعده ، فلن ينال الا اهمالي واحتقاري . وهذا الرجل نفسه يدعك تحدثينه عن رجل آخر ولا تحدثينه الا عن هذا الرجل ... ان هذا الاعتراف لا يكتفي بأن يجعلك في نظري امرأة تشتهى ، بل يتجاوز ذلك الى جعلك امرأة تحَب لصراحتهـــا وشبابها وحيويتها وجنونها .

« لقد خسرتُ كثيراً من هذا التفاهم لانك كنت من

الجزم بحيث اضطررت الى الاذعان في الحال . اما انت ، يا سيدتي ، فقد ربحت منه كثيراً لانك اوحيتِ الي احتراماً عظيماً . اتوسل اليك بان تعودي فأكون وادعاً ومتواضعاً في رغائبي . لقد استحققت احتقارك حين اجبتك باني سأكتفي بالنظرات ، فقد كذبت .

« آه ! لو كنتِ تعلمين كم كنت جميلة ذلك المساء ! لا اجرؤ على المضي في الثناء فالثناء مبتذل ، ولكن عينيك وفمك وكل شخصك الحي يمر الآن على عيني المغمضتين ، فأشعر بأن الامر جازم لا مرد له .

« عودي الي ! اني اسألك ذلك راكعاً على ركبتي . ولن أقول لك انك ستجدينني بدون حب ، سوى انك لن تستطيعي ان تمنعي روحي من التحويم حول ذراعيك ، ويديك المتناهيتين في الجمال ، وعينيك اللتين تقطنهما حياتك كلها ، وكل شخصك الجسداني المعبود . لا ، انا أعلم انك لا تستطيعين ذلك . ولكن كوني مطمئنة ، فأنت في نظري معبودة لا يمكنني ان ادنسها .

« أنت في نظري الحياة والحركة ، ليس لان اشاراتك سريعة وطبيعتك عنيفة فحسب ، بل لان عينيك تستطيعان ان توحيا الى الشاعر حباً خالداً . كيف أعرب لك عن شدة حبي لعينيك وقدري لجمالك ؟ فجمالك يحوي ظرافتين متناقضتين

لا تتناقضان فيك ، هما ظرافة الطفل وظرافة المرأة .

« آه ! صدقيني ، فأنا أقول لك من اعماق قلبي انك خلقٌ معبود واني احبك بشدة . انها لعاطفة طاهرة هذه التي تربطني بك الى الابد . أحبك يا ماري ، وهذا لا شك فيه ، ولكن الحب الذي أحسه نحوك هو حب المسيحي لربه ، فلا تخلعي اسماً ترابياً مخجلاً على ذلك الجاذب العذب النقي الذي يربط روحي بروحك بالرغم من ارادتك .

« كنت ميتاً فأحييتني ، فأنت لا تعرفين كل ما انا مدين لك به . فقد غرفتُ من عينيك الملائكيتين غبطة كنت أجهلها . فدلتني على سعادة الروح بكل ما فيها من الكمال . فأنت من الآن فصاعداً مليكتي وهواي وجمالي . انت مني الشطر الذي خلقه جوهر روحي .

« بك ، يا ماري ، اصبح قوياً وعظيماً ، وكبيتراك أخلد لوري . فكوني ملاكي الحارس ، كوني عروس شعري وعذرائي ، وخذي بيدي في طريق الجمال .

« تكرمي علي بكلمة . اتوسل اليك ان تجيبيني بكلمة ، بكلمة واحدة . ففي حياة كل منا ايام مبهمة او حاسمة تدفعنا فيها محبة او نظرة الى الحماقة او الى الجنون ! اؤكد لك اني اعيش هذه الايام ، فكلمة منك تكون الشيء المبارك الذي ينظر اليه ويتعلم عن ظهر قلب . لو

تعلمين كم احبك ! دعيني ارتمي على قدميك وقولي كلمة ... لا ، لن تقوليها !

« سعيدٌ ، الف مرة سعيدٌ ذلك الذي تخيرته بين جميع الخلق ، انت الملأى حكمة وجمالاً ، أنت الموهبة والروح والقلب ! اية امرأة تستطيع ان تحل محلك !

« لست اجرؤ على ان اسألك زيارة ، فسترفضين سؤلي . لذلك سأنتظر ، سأنتظر سنين ... وحين ترينني متشبثاً ، في حبي لك واحترامي ، بتجرد مطلق ، تتذكرين انك بدأت بالاساءة اليّ وتعترفين بانك اتيت عملاً سيئاً . لقد حلا لك ان تطردني ، ويحلو لي ان اعبدك . هذا امر مفروغ منه . »

لا نعلم هل ردت النموذج ماري ×... على هذه الرسالة أم لا . واكبر الظن انها عزتها الى مجنون او الى مخاتل ولم ترد عليها ، فالقصة لم تترك اي اثر غير هذا . وبوسعنا ان نفترض ان هذه المرأة احسنت صنعاً باهمالها الوعود الخلابة التي انطوت عليها هذه الرسالة الهاذية . ففيها كل شيء ، فيها الخداع ، والوقاحة ، والتفخيم على طريقة الفرد ده موسه الذي كان بودلير يحتقره ، وفيها اشياء صبيانية ، واحترام مضحك امام نموذج ، ووحشية متنكرة ، وخبث ، واستحياء .

والواقع ان هذا الشاعر العظيم والجماليّ العميق كان

بالرغم من مزاعمه أبله ، غبياً امام النساء ، ومختلطاً معقداً يكاد يصدق اكاذيبه او يصدقها . ففي حين كان يهذي كما رأيناه « على شرف » ماري x... كان يحب امرأة اخرى ويكتب اليها ما يكتبه لتلك .

أجل ، كان بودلير يكذب ، ويكذب على نفسه ويستخدم شعره ونثره لغايتين . ومع هذا كان صادقاً في تمنيه ان يُحب وان يُحَب لغرض غير الشبق والفجور .

ومن هي المرأة الاخرى التي كان يحبها ؟ هي امرأة صادفها من زمن طويل عند المصور الجميل فرنان بواسار ده بوادنيه ، في اجتماعات فندق بيمودان . وهذه المرأة تدعى السيدة ساباتيه .

وصلنا الى الدور الغرامي الكبير الذي مثله بودلير ، او على الاقل الى دور أسمى من دور الدعر الذي مثلته جان دوفال .

ومن هي السيدة ساباتيه ؟ إنها تستحق ان تُدرس عن كثب .

ولدت السيدة ساباتيه ، واسمها الحقيقي اغلائي سافاتيه ، في مدينة ستراسبورغ عام ١٨٢١ ، أي في العام الذي ولد فيه بودلير . ولسنا نعرف شيئاً عن عائلتها وشبابها الاول ، وعن غرامياتها قبل الحادث الذي سنرويه . ففي احد الايام

فيا روجه ده بوفوار والفرد ده موسه والفرد تاتـه وارفر وغوتنغر وهيبوليت موسيلمان وغيرهم من حلقـة « الشباب الذهبي » ينظرون من شرفة فنـدق بيمودان الى المستحمّات على ضفة النهر ، رأوا ثلاث نساء شابات يخرجن من المـاء وبينهن واحدة ربطت شعرها الاشقر بغلالة وردية ، فأثرن فضولهم فدعونهنّ بدون كلفة . ولم تحتج اغلائي سافاتيـه ، صاحبة الغلالة الوردية ، اكثر من هذه الزيارة لتصبح عشيقة هيبوليت موسيلمان . وكان موسيلمان هذا صيرفياً يجمع الى الغنى والشباب مرحاً وظرفاً .

وما عتم الامر ان أدخلت اغلائي سافاتيه بعض التعديل على اسمها فصارت ابولوني ساباتيـه . ولدينا في مذكرات جوديت غوتيه وصفٌ جميل للمسكن الذي أثثه لها موسيلمان تأثيثاً رائعاً في شارع فروشو . وفي جملة رياش هذا المسكن صورة زيتية للسيدة ساباتيه طلبهـا موسيلمان من المصور غوستاف ريكار . واليكم وصف جوديت غوتيـه لصديقتها السيدة ساباتيه : « ثلاثـة جواذب كانت تبتدرك منها للوهلة الاولى هي الجمـال والمرح ورقـة الخلق . كانت طويلة القامة ، متناسبة ، جميلة اليدين . وكان شعرهـا الكستنائي المذهب المتناهي في النعومة يسترسل من تلقائه موجاتٍ غنية بالنور . اما لونها فكان مشرقاً ، وتقاسيمها منتظمة ، وفمها

صغيراً ضاحكاً . اما قوامها الظافر فكان يوزع حولها النور والسعادة . »

وهذا الوصف لا يختلف عما نشعر به حين ننظر الى اللوحة التي صورها ريكار . وهناك تمثال عارٍ لكليسنجر ، صهر جورج صند ، لا يخفي عنا اية دقيقة من جسد السيدة ساباتيه الرائع . واسم هذا التمثال « المرأة الملدوغة » . وليست الحية سوى ذريعة لتمويج الجسد تحت تأثير التشنج الغرامي والالم معاً .

وفي الواقع ان السيدة ساباتيه كانت على جانب كبير من الجمال . وكانت في الثانية والعشرين من عمرها حين صادفها موسيلمان وجعلها عشيقته . وفي الحال صح عزمها على ان تمثل دور « سيدة خطيرة » ، وان تفتح بيتها للعظماء . وسرعان ما صار بيتها مجتمع الادباء كتيوفيل غوتيه ، وفلوبير ، وربير ، وبويه ، وبريو ، ومكسيم دي كان ، وهنري مونيه ، وديماس الاب ، والفرد ده موسه ، وريكار ، وكليسنجر ، وفيدو ، وميسونيه وغيرهم .

ويقول غوتيه ان السيدة ساباتيه « لم تكن تسمح لاحد بان يغازلها ، وكانت تفرض على الرجال ان يتحدثوا امامها بمسائل رصينة ومجردة . » وفي الحقيقة انهم كانوا ينطلقون في الكلام الفاحش ما يشاؤون . وكانت السيدة ساباتيه

تصغي بابتسامتها الهادئة الى حكايات تندى لها اليوم جباه كثير من النساء . اما فارس هذه الحكايات فكان على الغالب تيوفيل غوتيه . فالقصص القذرة كانت اطيب ما يحلو لهذا « الفنان الصرف » ان يقص على المائدة ، وكان يسميها « الخنزيريات » . ولكن هذا التجاوز لم يكن يجرح موسيلمان ، وكانت السيدة ساباتيه تكتم استياءها منه . ومما لا شك فيه ان احترام الرومنطيقيين للمرأة كان اسطورة كاذبة كما كان احترام فرسان القرون الوسطى لها .

كان بودلير يتردد على «صالون» السيدة ساباتيه ، ولكن الحاشية كانت تمقته لاصغائه باحتقار نصف مكشوف الى احاديث افرادها . وكانت تتحمل بصعوبة آراءه الحاسمة ، وصوته الساخر ، وتصنعه ، واعجابه بنفسه ، وحذلقته ، واحاديثه المعقدة . وكثيراً ما كان يجيء وقد اعتنى بلباسه الى حد التكلف المضحك ، فاحتذى حذاء عجيباً ، وارتدى قميصاً مقوراً تقويراً واسعاً حول العنق ليظهر بياض جيده ، فيبدو في الواقع كأولئك المحكوم عليهم بالشنق . وكان وجهه غريباً ، وقد عدله مراراً . ففي شبابه كان يرسل شعره معكساً ، ثم شعثه وارخى لحيته كما يرى في اللوحة الزيتية التي صنعها ديروى . وبعدئذ صح عزمه على ان لا يترك سوى شاربيه وذبابة من لحيته ، وان يقص شعره غير تارك منه سوى خصلة

عوجاء على جبينه لكي يحجب ، ولا شك ، بدء قرعة قد تكون ناجمة عن داء الزهري الذي كان ماضياً في الفتك به فتكاً بطيئاً . وفي آخر الامر رأى من السخف والبورجوازية – على حد قول غوتيه – ان يحتفظ بالشاربين والذبابة ، فحلقها جميعاً .

ومن الصور الزيتية التي صنعت له تباعاً يمكن تتبع سير الداء الرهيب الذي كان يمعن في تخريب جسده . فعيناه السمراوان كانتا تشردان احياناً ، وكانت طيتان عميقتان تزدادان تقعراً على جانبي فمه ، وشفته السفلى تغلظ فتهبط متشززة واذا هي تناقض رصانة النظر وصقالة الجبين العريض . وفي اواخر ايامه أدرك الصلع مقدم رأسه وبقي الشعر غزيراً على رقبته وصدغيه ، فاعاره ذلك منظر كاهن رديء ذي ضحكة شيطانية أو منظر ممثل متخصص في النوع المأتمي .

كان بودلير القاتم ، الجاف ، الغامض ، يصغي الى تيوفيل غوتيه وهو يقص «خنزيرياته» على مسمع السيدة ساباتيه . وكان بالامكان ان يصدّق عنه كل شيء الا شيئاً واحداً وهو أنه يحب الرئيسة ، وهو اللقب الذي اعطاه الرفاق للسيدة ساباتيه .

وهذا العشق الخيالي للسيدة ساباتيه لم يكن يمنعه من أن يمارس الدعر الناهك مع جان . سوى انه كان يشعر ، كما اسلفنا ، بحاجة الى حب ممزوج بالعطف والاحترام والحنان ،

الى ذلك الحب الذي كان بودلير يأبى الاعتراف بحيويته وبقائه .

ولم تكن ابولوني المرحة « بودليرية » ، فقد كان بودلير يحتقر النساء او يؤلههنّ ، ولا يكلف نفسه فهمهن . كان تعساً يشعر بحاجة شديدة الى الحنان . وكانت السيدة ساباتيه طيبة القلب وجميلة . فتحول اليها ، ولكنه بدأ بتشويه كل شيء كمألوف عادته . بدأ بتأليف قصة معقدة ، ببناء سيدة ساباتيه خيالية كما بنى من الزنجية البائسة عشتروت سوداء . وسرعان ما صارت الشقراء والسمراء موضوع مقابلة ، فجان هي الجسد والشيطان والحوت ووحش الظلمات ، والرئيسة هي الروح والملاك والصديقة المثلى وملاك الاضواء الخالصة .

وما عتم الامر ان صار بودلير لا يتمالك نفسه عن اظهار شعوره . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ أيكاشف السيدة ساباتيه بحبه ؟ ولكنها قد تنطلق في الضحك فيموت خجلاً . وعندئذ صحّ عزمه على ان يبعث اليها بقصائد ورسائل مغفلة . وقد جرؤ على مواصلة هذه اللعبة الصبيانية مدة خمس سنوات تقريباً . والدليل على رداءته انه فيما هو يكتب رسائله الى الرئيسة كان يكتب الى ماري ... تلك الرسالة التي قرأناها عن ذلك الحب الابدي !

قلنا ان بودلير راح يشحن الى السيدة ساباتيه قصائد

ورسائل مغفلة مواصلاً الاحتفاظ بقناعه الصقيعيّ الساخر في اجتماعات يوم الاحد بشارع فروشو . ولدينا صيغُ هـذه الرسائل ، فهي من نوع الرسالة التي بعث بها الى ماري ... فالمزيج من الروحانية المسهبة والرغبة المقموعة هو نفسه ، وتأليـه الحبيب والاختلال العاطفي والنموّ التصوري هي نفسها .

يعرب بودلير في رسائله هـذه ، بانشاء معقد وغبي معاً ، عن تمنّيه الحصول على حماية عروس او ملاك ينجيه من الشرير ، ويخلصه من ميوله الذاتية ، ويهديه صراط العمل ، ويمضي به الى الخلاص عن طريق الدأب والمجد .

وفي هذه الرسائل يؤله بودلير السيدة ساباتيه كما أله جان دوفال ! فأبولوني هي « بياتريس » ... وعشيقة موسيلمان المتساهلة في سماع « الخنزيريات » هي مصدر كل خير ... ولا ننسَ ان هذا كله أعطى قصائد رائعة . ولا ننسَ ايضاً ان شعر بودلير هو اعظم واخلد مخاتلاته اذا كان الشعر نتيجة استيحاء يعبر عنـه بكلام رائع ، وعندئذٍ يكون معظم الروائـع الفنية مخاتلات او مشوهات او اكاذيب لتضليل واقع الحياة المضجر .

كتب بودلير الى السيدة ساباتيـه : « لستِ في نظري أفتن النساء ، جميع النساء ، فحسب ، بل أنت ايضاً أعزّ واثمن

الهواجس ... لقد عرفتِ ولا شك كل انواع التمليق وصرت لا تفرحين الا لشيء واحـــد وهو ان تعلمي انك تعملين الاعمال الصالحة ، وانك تعملينها وانت نائمة وبدون ان تشعري ... فحين أرتكب حماقـــة ما اقول في نفسي : « بودي ان لا تدري بها ! » وحين أعمل عملاً حسناً أقول في نفسي : « انه ليقربني اليها بالروح . » لا ادري ، هل يتيح لي الحظ السعيد ان اجتمـع بك فأحدثك بنفسي عن سلطتك عليّ ، وعن الاشعاع المستمر الذي خلقته صورتك في دماغي ؟ على انه يسعدني في الآونة الحاضرة ان اقسم لك من جديد انه لم يسبق لأحد ان احب حباً اكثر تجرّداً واحتراماً من هذا الذي اضمره لك . قيل انه مرّ في الحياة شعراء عاشوا كل حياتهم شاخصين الى صورة حبيبة . والواقـع ان الوفاء هو دليل من أدلة العبقرية . »

والواقع ايضاً انه لم يتفق لاحد ان ناقض نفسه كما فعل بودلير . فها هو يتكلم كالذين كان ينعتهم بالعـاطفيين البلهاء . ولكني وددت من صميم قلبي وانا اقرأه لو كان صادقاً . فقد صور لي انه ، بعد تلك الاكاذيب وذلك الفشل الطويل والبؤوس الاليمة ، فهم قيمة الحب ، ليس الافلاطوني بل الحب الجسدي الوفيّ الممزوج بالاحترام والغيرة والتعزية ، الحب الذي يدعم العمل ، ويرسم الواجب ، ويحجب القنوط ،

ويمنع الانعزال الروحي الرهيب في صحراء البشر. ولو انه استطاع في الحقيقة ان يفهم ذلك لتبدلت حياته المبدعة اي تبدل، ولربما ربح عشرين سنة من العمر، وربح العالم خمساً أو ستاً من الروائع انقى واعظم من «ازهار الشر».

ولنعد الى موضوعنا.

لا شك ان في رسائل بودلير شيئاً صادقاً هو رغبته في ان يجد كتفاً صديقة يسند اليها جبينه التعب وقلبه الموجوع. ففي السيدة ساباتيه رأى بودلير سلامة القلب اولاً، ثم رأى الجمال الذي لا يفسد شيئاً. وبديهيٌ ان امرأة طيبة القلب غير جميلة لا تحسب شيئاً في نظر اديب جمالي كبودلير.

ارسل الشاعر الى السيدة ساباتيه عشر قصائد مرفقة بهذه الرسالة:

«اسألك يا سيدتي، الف معذرة، على هذه القوافي الركيكة البلهاء. وقد كان بودي ان لا انكبك بها، ولكن ما العمل؟ فأنا طماع كالاولاد وكالمرضى. وافكر في المحبين حين اتألم. وكثيراً ما افكر فيك شعراً. وحين تولد الاشعار لا أقوى على اخفائها. وفي الوقت نفسه اتجنب كمن يخاف السخرية. أليس في الحب شيء مضحك في نظر الذين لم يصابوا به؟»

وما هي هذه القوافي الركيكة البلهاء؟ هي من اروع قصائد «ازهار الشر». هي «اعتراف»، و«الفجر الروحي»

التي بلغ فيها جمال الاسلوب والفكر حد الكمال ، و « المشعل الحي» ، و الزجاجة ، و « الى المسرفة في المرح » وغيرها .

على ان بودلير يظهر في هذه الاخيرة كما هو في الواقع، يظهر فجأة بكل وحشيته ، ويخلع عنه القناع ليبدو تحته وجه ذلك الداعر المريض الذي اجادت تثقيفه عشتروت السوداء .

واليكم بعضاً من ابيات هذه القصيدة :

« اشتهي ليلة ، حين تدق ساعة اللذات ،
ازحف فيها نحو كنوزك ، بدون ضجة كالجبان ،
فاعذّب جسدك البهيج ، واثخن ثديك المسامح ،
واحفر في جنبك المذهول جرحاً عريضاً ،
وخلال هاتين الشفتين الجديدتين الاشد ألقاً وجمالاً
ـ يا لها لذة مدوخة ! ـ اقطر فيك سمّي ، يا اختِ ! »

انها لعلى جانب كبير من القذع والوحشية . والالماع الى « السمّ » مخيف في رجل يداوي مرضاً عضالاً كمرض بودلير . ولا نزاع في انه كتب هذه القصيدة بعد ليلة داعرة مع جان التي كان يواصل امتلاكها . ولكن كيف وجه هذه القصيدة (وهي في جملة القصائد التي شجبتها المحكمة فيما بعد) الى المرأة التي سماها ملاكه الحارس ، الى عروس الشعر والعذارء ؟ الحقيقة ان بودلير لم يكن شفي ، وانه بقي يمزج

احلام حبه الأمثل بالانات والشتائم كرجل تعود ان يمقت المرأة ويحتقرها فيما هو يطلبها ويشتهيها .

٦

وماذا كان بامكان السيدة ساباتيه ان تظن بتلك الرسائل والقصائد؟ كانت تزهى بها وتغتبط على الغالب الكثير. ففي هذه القصائد لغة لم تألف مثلها في لسان موسيلمان او في ألسنة الضيوف من رجال الادب واصحاب «الخنزيريّات». كان ثمة رجل يرفعها الى مصاف الملائكة، وكانت على جانب من المعرفة يسمح لها بأن تدرك ان شعر هـذا الرجل في غاية الجمال، فهل تراها فكرت تفكيراً جدياً في الوصول الى معرفة هذا الرجل ام آثرت ان تترك هذا الحادث في جوه المبهم؟ لا نعـــلم الا ان الامر بقي جملة سنوات على منوال واحد. ولكن ان نكن نجهل في اي وقت جزرت السيدة ساباتيه صاحب الرسائل والشعر فنحن لا نجهل انهـا حزرته. فبتفحصها ضيوف «صالونها» واحداً واحـداً توصلت بذكائها الانثوي الى الاعتقاد بأن الشاعر المجهول الاسم هو هذا المتصنّع، هذا المهذب الساخر بودلير. سوى انهـا تجاهلت الامر لتدع للمغامرة حدتها وظرفها.

ووصلنا الى اولى اشهر العام ١٨٥٧. وهو اهم عهد في حياة بودلير.

ففي نيسان توفي الجنرال اوبيك ، فتملص ابن زوجته من موضوع غضبه ومقته ، واصبحت السيدة اوبيك ارملة للمرة الثانية . وبما ان الجنرال لم يدخر شيئاً فلم ترث سوى رياش داره في باريس وعدد من الجياد والمركبات اضافت ثمنها الى النفقة التي قررتها لها الدولة والى ما كانت تملك من ميراث زوجها الاول . ويبلغ مجموع هذه الثروة نحواً من الفين وخمسمائة ليرة ذهبية . وقررت الاعتكاف في دارها الصيفية الصغيرة بهونفلور .

راح شارل يساعدها في ترتيب هذا كله كاتماً فرحه بوفاة اوبيك وبعودة امه بكليتها اليه ، اليه وحده ، كما كانت زمن حداثته . واقسم ان يعتدل ويبر بأمه وان يذهب حيناً بعد حين الى هونفلور فلا يطلب من امه دراهم ، بل يعطيها . وقطع لها عهداً بالانقطاع عن الافيون والانصراف الى العمل المجدي .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان قد تعرف الى الناشر بوله مالاسيس . وقرر هذا الاخير نشر مجموعة القصائد المنتظرة من زمن طويل . وصدرت « ازهار الشر » فأثارت الشكوك الى حد ان النيابة العامة قررت ملاحقة الشاعر والناشر بجريمة الاساءة الى الدين والآداب . وقد عين يوم ٢٠ من آب موعداً للمحاكمة . عندئذ نزع بودلير القناع ، وفي الثامن

عشر منه بعث الى السيدة ساباتيه باول رسالة تحمل توقيعه. وكان يعلم ان الرئيسة قد حزرته اذ قالت له شقيقتها يوماً ضاحكة في أنفه: «ألا تزال تحب شقيقتي وتبعث اليها برسائل رائعة؟»

قال بودلير في رسالته الى صديقته ان اثنتين من القصائد التي شجبتها النيابة العامة «وستجري محاكمتها» نظمتا في تكريمها وهما «الى المسرفة في المرح» و«كلك». ورجا منها بالحاح ان لا تفشي شيئاً مما قد يقوله لها. ثم لمّح اليها بانه يود ان تتوسط لاجله لدى القضاة. قال: «كانت الامبراطورة تشد ازر فلوبير في قضية «السيدة بوفاري»، فانا تنقصني امرأة.» وجمع الى رسالته نسخة من كتابه مجلدة تجليداً خاصاً.

وكانت السيدة ساباتيه ذات نفوذ عريض... فاراد بودلير ان يستفيد منه. وكان يفتش عن وسائل للدفاع فيذهب الى سنت بوف ويستنجد بالقضاة والاصدقاء. وفي ٣٠ من آب انتهت المهزلة القضائية بالحكم على بودلير بمادة الطعن على الآداب العامة لا على الدين. ويقضي الحكم بالغاء ست من قصائد المجموعة، وبغرامة قدرها ثلاثمائة فرنك يدفعها بودلير، وغرامة اخرى قدرها مئتا فرنك يدفعها الناشر.

وبديهيٌ ان «ازهار الشر» راجت في اليوم التالي للحكم رواجاً كبيراً. وقد طبعت منذ ذلك العهد اكثر من مئة

مرة . وفي الساعة التي اكتب فيها هذا ، ١٩٢٧ ، ينتظر البوديليريون بفارغ الصبر ان يرد القضاء الى بودلير حقوقه وشرفه بالغائه الحكم الذي اصدره في العام ١٨٥٧ . ولا ادري لماذا يلح اشياع بودلير في طلب الغاء هذا الحكم ، فانا لا يسوؤني ابداً ان تبقى مهزلة القضاء لاصقة بمجد رائعة تتمتع باعجاب عالمي .

وربّ متسائل ماذا فعلت السيدة ساباتيه حين كشف بودلير لها عن حقيقة امره في الساعة التي ذاعت فيها شهرته ؟ لم تفعل اكثر من انها سكرت فجأة بالمجد — بمجد ادبي زادت قيمته حملةٌ شنتها الصحافة على الشاعر وحكمٌ اجمع الشباب المثقف على استنكاره واعار بودلير وجه شهيد من شهداء الجمالية . وكيف لا تسكر ابولوني ساباتيه بمجد يحرزه شاعر انقطع لها زمناً طويلاً بصبر وتكتم واحترام تدعو الى الدهشة ؟ وكان هذا الشاعر يختلف اختلافاً كبيراً عن موسيلمان وعن سماجة غوتيه . وقد اخطأ السيد فرانسوى بورشه بزعمه ان أبولوني ، وهي امرأة اباحية ، ظنت ان عشيقاً يحكم عليه بالطعن على الآداب يستطيع ان يجيئها بلذات جسدية جديدة . فالسيد بورشه من الكتاب الذين أجادوا تصوير بودلير في حياته الخاصة ، ولكني اعتقد انه أخطأ في اساءته الظن بالسيدة ساباتيه . فهذه الاخيرة

لم تكن الفضيلة بعينها ، وكانت تعرف من الحب الجسدي كل ما يمكن ان يعرف ، فلم تحتج الى بودلير ليعلمها شيئاً في هذا الباب ، ولكنها كانت سليمة وطيبة ، فلماذا ينكر عليها اعترافها بالجميل لمثابرة رجل ذي قيمة وشهرة تعتقد انه هائم بها ؟ لو ان السيدة ساباتيه أرادت ان تخون الرجل الذي ينفق عليها مع هذا أو ذاك من الاباحيين الذين حولها لوجدت الف فرصة ، ولكنها لم تفعل . ولئن تكن استسلمت الى بودلير فلأنها اذعنت الى فطرة المرأة حين تحب . فالجاذب الروحي والتصوري في اشد النساء تحفظاً يؤدي حتماً الى اعطاء الجسد . وليست الهبة الجسدية سوى تكميل للاخرى عند جميع النساء اية كانت تربيتهن وطبقتهن .

مرّ من ١٨ الى ٣١ آب ١٨٥٧ اثنا عشر يوماً كانت كافية لاستنباط قصة بسيكولوجية على جانب من الغرابة بطلاها من جهة رجل تعب منهوك سئم الحياة الشهوانية ، يضطرب في ازمة روحية شديدة ، ويصور له انه قادر على بذل جهد عظيم ليستعيد حياته الطبيعية ، — ومن جهة اخرى امرأة جعلها هذا الرجل مثلاً اعلى ، وهي ليست بالمعبودة التي يتوهمها ولكنها طيبة القلب جميلة وتشعر للمرة الاولى ولا شك بانها مشربة الروح بعذوبة حب خيالي يختلف كل الاختلاف عن تلك اللذة الجسدية التافهة التي لم تعطِ حتى

ذلك العهد ولم تأخذ غيرها . وماذا صدر عن اجتماع هذين الشخصين ؟ هل صدرت عنه وثبة الى الحب الشريف ، الى الحب الاكمل ؟ ستجيبنا عن هذا السؤال الرسائل المتبادلة التي لدينا .

لم ينتظر بودلير ردّ معبودته على رسالته ليذهب اليها . فالرسالة تحمل تاريخ ١٨ ، والمحاكمة جرت في ٢٠ . وفي الثاني والعشرين ساعة هذه كان الشاعر منهمكاً بتنظيم دفاعه فلم يفسح له في ساعة من الوقت . ولكن في اليوم التالي بعد ان حكم عليه في جو مشبع بالعراك والمجد ، ذهب اليها واتسم الحديث بسمة الغرام الشديد .

ورب متسائل هل حصل وصال جسدي في تلك الزيارة الاولى ؟ ليس في الرسائل ما يؤكد ذلك . ولكن حصلت اعترافات وتدفقات قلبية الى حد ان ابولوني رددت في ردها على رسالة ١٨ آب كل ماقالته في تلك الزيارة :

« انا اليوم اكثر هدوءاً وطمأنينة ، واستطيع ان اقول لك ، من غير ان تتهمني بالمبالغة ، اني اسعد النساء جميعاً ، واني ما شعرت مرة بأني احبك كما اشعر الآن ، وما رأيتك يوماً ، يا صديقي الالهي ، جميلاً كما رأيتك في سهرتنا يوم الخميس . »

ولا شك في ان تلك السهرة لم تخلُ من قبلات لاهبة

ووعود. فهذه المرأة، كما نرى، تهب نفسها بدون سوء ظن. وما همّها غضب موسيلمان او لم يغضب، فهي تحب، وتشعر بتلك الحاجة النسائية الى الاعتقاد بأنها تحب من زمن طويل الرجل الذي لم يخطر لها قبل خمسة ايام في بال.

واين ومتى حصل الامتلاك الجسدي؟ لا نعلم. واكبر الظن انه حصل في مسكن السيدة ساباتيه التي كانت على ما يظهر حرة في بيتها، وكان عشيقها الرسمي يزورها في اوقات معينة او يبلغها زيارته مسبقاً. ولكن المهم هو نتيجة ذلك الاتصال الجسدي بين شخصين بلغا الحالة الروحية التي اتينا على وصفها.

وهذه النتيجة كانت خيبة أمل مرة لكلا الشخصين — وكان بودلير سببها.

اكبر الظن ان الاتصال ... الحاسم حصل في ٢٧ او ٢٨ من آب. وماذا جرى في ذلك اليوم؟ جرى ان عروق بودلير خانته، وانه، امام الحبيبة التي اعطت نفسها بكل اخلاص، دفع دفعة واحدة ثمن كل خطيئاته، وكل عاداته المشؤومة، وانحرافاته الغرامية، وكل ما فتش عنه هذا المسكين في احط النساء منذ ثماني عشرة سنة. فهو لم يستطع امتلاك نفسه واخضاع جسده المتلف له. وكان أنّ تهيّج شهوته التخيلية افضى، امام الحقيقة الحية، الى عجز مطلق عن امتلاك العشيقة الوحيدة الجديرة بالحب.

معلوم ان كثيرين من الرجال عرفوا هـذا النوع من الفشل الذي كان ستندال الساخر يسميه « فياسكو . » وهو وان يكن مكروهاً في كل وقت ، الا انه شنيـع مخيف في نظر حييّ وجل ومتعجرف مريض باعصابه كبودلير . ولا شك ان بودلير عرف الفشل اكـثر مما عرف الفوز ، وقد رأينـا الوسائل التي كانت جان دوفال تبتدعها له ... ولكن الامر امام خلايق من هذا النوع ليس بذي بال ، وهو من الاهمية بمكان أليم حين يحلو للطبيعة ان تحرم امرءاً امتلاك المرأة الوحيدة التي يشعر نحوهـــا بالحب الكامل ، الحب الجسدي والروحي !

بديهيٌ ان النساء الذكيات اللواتي يعرفن الحيـاة يفهمن هذا النوع من الخور ويعذرنه اذ لا يجهلن ان مرده ، عـــلى الكثير الغالب ، الافراط التخيلي الذي ينقل الشهوة الى الدماغ ، وان هذا الخور او هذا الضعف يمكن ان يزول في المرة الثانية ، على ان لايغتم صاحبه وان يتذرع بالصبر . وكانت السيدة ساباتيه عارفة بأسرار المضجع وبطبائع الرجـــال ، فاعتقدت ان «صديقها الالمي» مضطرب فكتبت له تقول : « يخيل الي اني لك منذ اليوم الاول الذي رأيتك فيـه . فافعل بي ما تشاء فانا لك جسداً وروحاً وقلباً . »

ولا ريب ان السيدة ساباتيه لم تجرؤ عـــلى استعمال

بعض الوسائل التي كانت تستعملها جان للتغلب على حالة الخور التي حلّت بعشيقها . لم تجرؤ على استعمال تلك الوسائل مع انها تجيدها ، ليس لشيء الا لانها تحب بودلير . وقد كان على بودلير ان يقول لحبيبته : « انك تحبينني كما أحبك ولا تجهلين أني عصبي ، فدعيني آلفك بعذوبة ، وعندئذ يزول الدُوار التخيلي الذي شلّني . » ولكن بودلير المتعجرف لم يفعل ذلك . بل راح في اليوم التالي لفشله يفكر في هجر هذه المرأة التي أحبته ، غير آبه الا لامر واحد وهو ان يمثل دوره بتغريقه اشياء مهينة في خليط من الكلمات الفلسفية الصوفية . واليكم هذه الرسالة العجيبة بتاريخ ٣١ آب ، وهي مزيج من الخداع والمخاتلة والهذيان :

« أجيبك عن رسالتيك الاخيرتين . تقولين لي : « يخيل اليّ أني لك منذ اليوم الاول الذي رأيتك فيه . فافعل بي ما تشاء فأنا لك جسداً وروحاً وقلباً . » يجب عليك أن تخفي هذه الرسالة ايتها المسكينة ! أتفقهين حقيقة ما تقولين ؟ ثمة رجال يسجنون من لا يدفع ما عليه ، ولكن لا أحد يعاقب من ينتهك حرمة عهود الحب .

« قلت لك امس : ستنسينني ، وستخونينني والذي يسليك اليوم سيضجرك غداً . وأضيف اليوم الى ذلك : ولن يشقى ويتألم إلا ذلك الابله الذي يحمل الاشياء الروحية

على محمل الجد . أصارحك بأني لست اؤمن كثيراً بالنساء ، فروحك جميلة ولكنها روح امرأة .

« تأملي كيف انقلبت حالنا بايام قليلة ! كلانا يخشى الاساءة الى رجل مستقيم لايزال سعيداً في حبه (كأن اربع سنوات لم تكف بودلير لكي يفكر في موسيلمان) . وكلانا يخشى أيضاً هبوب عاصفة لأننا نعلم — وأنا على الخصوص — أن هناك روابط يصعب حلها (هذه الجملة تتعلق بجان . فقد ضربها وهجرها ، ولكنه ظل يستخدمها عند الحاجة) .

« لايام خلت كنت إلهة معبودة . اما اليوم فانت امرأة . وما أدراني أن الغيرة لن تتسرب الي من عينيك اللتين ترسلان الابتسامات والظرف الى جميع الناس !

« لا اجرؤ على ان أعيد قراءة ماكتبت لئلا اضطر الى تعديله ، اذ يخيل الي اني افرغت في هذه الرسالة شيئاً من طباعي الرديئة . وداعاً ايتها الحبيبة . حين احمل معي عطر ذراعيك وشعرك ، احمل ايضاً الرغبة في ان اعود . ياله هاجساً لا يطاق ! »

لا أفهم كيف ان عالماً رصيناً كاوجين كريبه يرى في هذه الرسالة « حاجة ملحة الى الصدق ، وفطرة ولاء وشرف ، وصراحة قاسية تكلف صاحبها غالياً لانها تصعق آماله في

السعادة » ؟ فانا لا أرى فيها إلا رياء وهذياناً وتهرباً مزهواً وفراغاً في المعنى وفي القلب ، وقساوة في لهجة تتصنع العذوبة فتفضحها هذه الصرخة الوحشية : «أنا لا أؤمن بالنساء! » وهذه الـ « أنا » نجدها دائماً ولا نجد كلمة عن الالم الذي يسببه لغيره ! وليس في النساء من لا يجرحه هذا الفشل الخلقي الأشد كرهاً من ذاك .

سوى ان ابولوني لبثت مدهوشة وحزينة . ولو انها سيدة خطيرة لفكرت في كرامتها ، ولكنها جرّبت ان ترى بقلبها لا بفكرها . والفطرة الانثية هي على الغالب ترياق ضد الاراجيف المعقدة ، وتذهب توّاً الى الهدف . قالت السيدة ساباتيه ردّاً على تلك الرسالة العجيبة :

« أتريد يا صاحبي ، ان اقول لك فكرتي ، فكرتي القاسية التي تؤلمني ؟ إنك لا تحبني . ومن هذا تصدر تلك المخاوف وذلك التردد في توطيد علاقة لن تلبث في أحوال كهذه ان تصبح مصدر غموم لك وعذاباً لي . أو ليس لديّ دليل على ذلك في عبارة من رسالتك جمد لها دمي ؟ « أنا لا اؤمن بالنساء ! » أنت لاتؤمن لانك لا تحب . ربِ ! ان هذه الفكرة لتعذبني . وكم اود ان أبكي على صدرك ! يخيل اليّ ان هذا يسعفني . ومهما يكن فلن أغير شيئاً من اجتماعنا غداً ، فانا أريد ان أراك لأمتحن نفسي كصديقة . آه ! لماذا

اردت ان تراني من جديد ؟ — صديقتك التعسة . »

هذه لهجة الحب الصريحة . ولكن بودلير كان قد صحّ عزمه على الانسحاب تدريجاً . وكان يخشى كثيراً ان يلقي على كاهله أعباء امرأة قد يهجرها موسيلمان اذا علم بعلاقتها . ويعترف بأن هـــذه المرأة لا تسكره ، فهي بيضاء شقراء بدينة وهو لا يحب الا السمر العجاف . وقد يكون فكر في مرضه وردعه ضميره عن ان « يقطر سمه » في ابولوني ، حسب الرغبة المخيفة التي أعرب عنهـــا في احدى قصائده الغرامية . ولكن كان احرى به ان يفكر في هذا كله قبل ذلك الحين ، فيرفع عنها وعن نفسه تلك المحنة المضحكة الاليمة .

ومهما يكن فقد واصل تردده على شارع فروشو باذلاً جهده في تقصير زياراته . واستمر تبادل الرسائل بينه وبين السيدة ساباتيه . واليكم رسالة تدل على مـــا كانت هذه الاخيرة تتصف به من الفهم ورقة الشعور والتسامح :

« ما هي هذه المهزلة او المأساة التي تمثلها ؟ لا اكتمك اني جد قلقة . فتصرفك منذ ايام هو من الغرابـــة بحيث صرت لا افهم منه شيئاً . ألا بحقك انزني يا صديقي ، فانا لا اطلب الا ان افهم اية ريح سمتة هبت على تلك الشعلة الجميلة ؟ أتكون عاقبة تفكير رشيد ؟ اذا كان ذلك فهـــذا التفكير جاء متـــأخراً . كان عليّ ان اعتصم بالرصانة حين

جئت اليّ . ولكن ما العمل ؟ حين يرتجف الفم ويخفق القلب تذهب الافكار السليمة ... لا حاجة لان أقول لك اني كنت اتوقع ما ورد في رسالتك . فانت على ما يظهر تخاف خوفاً هائلاً ان تجد نفسك معي وجهاً لوجه . مع ان هذا ضروري .

« لا اقوى على الرغبة في ان اقول لك بضع كلمات بشأن ما حصل بيننا . فقد كنت رسمت لنفسي خطة مشبعة بالكرامة . ولكن لم يمضِ نهار حتى ضعف قلبي ، مع ان غضبي كان مشروعاً . اسمع يا شارل ، ماذا يجب علي ان اعتقد حين اراك تهرب مني إلا انك تفكر في تلك التي يفصل بيننا روحها ووجهها الاسود ؟ »

هذه صرخة التوبيخ الوحيدة من امرأة عرفت واقع الامر . فبعد الفشل الاول جرت ولا شك تجارب فاشلة ارادتها ابولوني ، ولكنها وجدت نفسها الى جنب رجل مصقّع لم تستطع الاهتداء الى الحركات المخجلة التي بوسعها ان تؤثر فيه ، وعندئذ احست انه يفكر في المرأة السوداء فغضبت ، وكم كان غضبها مشروعاً . فحتى ذلك الحين لم يعاملها احد مثل المعاملة التي جرؤ عليها هذا الشخص العجيب الذي دخل الى حياتها السعيدة ليكدرها ويهينها بجميع السبل . وفي نهاية الامر اهتدت الى اللهجة اللازمة :

« أشعر انك اذللتني وازريتني . ولولا احترامي لنفسي لشتمتك . على اني اتمنى لك العذاب لان الغيرة تحرقني . يا لها ليلة صرفتها ، ولكم لعنت فيها هذا الحب الظالم ! »

مسكينة ! لقد صوّر لها انها ادركت كل شيء بادراكها مدى تأثير جان دوفال الجنسيّ فيه ، فأولتها شرف الغيرة منها . ولكنها اكثر استقامة من ان تقيس وتزن سائر الاسباب التي لدى بودلير .

وهكذا ختمت هذه القصة التعسة . وواصل بودلير الذهاب الى شارع فروشو ، ولكن مع ضيوف يوم الاحد .

لو ان السيدة ساباتيه استطاعت ان تهدي هذا التائه الضال الى الصراط القويم بما اوتيت من الموهبة في اعطاء اللذة السليمة لكان نجا على الكثير الغالب . ولكنه تصرف تصرفاً مقيتاً فضيّع آخر فرصة أتيحت له . اما هي فقد شقيت ولا شك ، ولكنها كانت تتمتع بصحة ممتازة وتحب الحياة فشفيت لحسن الحظ . ولم تضمر اي حقد لبودلير الذي لم يضمر لها هو بدوره اي حقد . وبعد اشهر كتب اليها يقول : « أعانقك ، كرفيق قديم ، احببته وسأظل احبه . » وكان من وقت الى آخر يبعث اليها بهدايا صغيرة .

وانفصلت السيدة ساباتيه عن موسيلمان الذي مات باكراً بعد ان بدّل عشيقاته مرتين . ولم يخبرنا أحد كيف عاشت

ومع من ، وكيف كانت نهايتها . وآخر ما نعرفه عنها هو هذا : في العام ١٨٦٧ حين كان بودلير ينتظر الموت ابكم مشلولاً في احد مستشفيات باريس بشارع دوم كانت صديقته القديمة السيدة ابولوني ساباتيه تتردد عليه بدون انقطاع .

وبعد ؟ كيف نسي بودلير او على الاقل كيف حاول ان ينسى هذا الفردوس المفقود ؟ بعودته الى جان ! لقد عاد اليها بدون فرح . فمن زمن طويل وهو يكرهها ، ولكنه يعجز عن محاولة شيء آخر . فالداء كان يفنيه ويعذبه بمخاوف ليلية . وكان التفاوت عظيماً بين بودلير الشاعر والنقاد الفني الذي اعطى اصدق حكم في فنون عصره ، والعاشق المريض الحرق صاحب تلك المرأة البلهاء الرديئة البشعة السكيرة . فما عتم الامر ان عاد النزاع بينهما الى سيرته الاولى . فذهب بودلير الى امه في هونفلور وبقي عندها ستة اشهر . وفي احد الايام بلغه ان جان اصيبت بشلل في ذراعها اليمنى ، فهرول اليها وتدبر امر ادخالها الى عيادة ديبوى ، ذلك ان الشفقة كانت تتفوق في قلبه على سائر العواطف .

وما كادت تشفى حتى خرجت من العيادة لان هذه الاخيرة لا تقدم كحولاً وجان بحاجة الى كحول . وآوت الى مسكنها مزودة بزجاجة من عرق السكر (الروم) . اما بودلير فكان قد سكن احد الفنادق وختم النية على العمل

يجد هذه المرة ، ولكن خانته العافية . وكان الافيون يحركه دائماً الى القيء ويسبب له ضيقاً في التنفس . وظهر داؤه من جديد فعاد اليه الصداع والدوار . وفي شهر كانون الثاني ١٨٦٠ اصيب باحتقان في الدماغ تخلص منه بسرعة .

وكان لا يزال يعطف على جان فاستأجر لها في نوبي مسكناً حسناً ، وهمّ بأن يقطن معها . ولكنه دخل عليها في احد الأيام فوجد عندها خلاسياً وقحاً غليظاً مستقراً كأنه في بيته . كان هذا الرجل شقيقاً لجان جاء ليعيش على حساب أخته ، يأكل ويشرب وينام ويروز بودلير ويقيسه . فاشتعل بودلير غضباً ، ولكنه آثر الهرب على الاصطدام به . وما عتم الأمر أن مرضت جان من جديد فنقلت الى المستشفى . ولما عادت الى بيتها علمت أن شقيقها باع كل الاثاث واختفى .

أترانا وصلنا الى خاتمة تلك العلاقة الكريهة ؟ تقريباً . فمنذ ذلك الحين صار بودلير يرى جان في القليل النادر ، ولا يراها الا لتبتز منه دريهاته القليلة .

وكأنه أراد ان يصلح سمعته ويحصل على إلغاء الحجر عليه فصوّر له ان يرشح نفسه لمقعد في الاكاديمية الفرنسية شغر بوفاة الأب لاكوردير ، ولكنه ما لبث أن انسحب بعد جملة زيارات لأعضاء الاكاديمية . وكان ان أعلن إفلاس الناشر بوله مالاسيس فلم يجد بودلير من ينشر له شيئاً من أوراقه .

وتشبث النحس في ركابه فساءت صحته كثيراً وتكالب عليه البؤس . ولكنه بقي يتردد على الخمارات ، وكثيراً ما شوهد ليلاً في خمارتي موزار وفالنتينو . وكان وهو في الثانية والأربعين من العمر كأنه في الستين .

وربّ متسائل أفي باريس أم في بروكسل ، عاصمة بلجيكا ، صادف صديقته الأخيرة التي لا نعرف إلا العَلَمَ من اسمها وهو برت ؟ من يدري . واكبر الظن أن برت فتاة بروكسيلية جاءت الى باريس . ولدينا رسم لها بريشة بودلير نفسه يرينا وجهاً غليظاً يعلوه شعر ثقيل مضموم في شبكة . وقد كتب على الرسم العبارة التالية : « الى فتاة فظيعة ، تذكار من مجنون كبير يبحث عن ابنة يتبناها ، ولم يدرس طبائع برت ولا قانون التبني . »

ماذا نفهم من هذا ؟

أبوسع أحد أن يميز الصدق من الكذب في بودلير ؟

سئمت نفس بودلير مدينة باريس فحدثته نفسه بان يجرب حظه في بلجيكا . فمني فيها بفشل ذريع . فحمل على بلجيكا والبلجيكيين ، واخذ يلعن كل ما استنشقه وتناوله . وفي احد الايام بلغ به اليأس مبلغاً شديداً ، فركب القطار الى هونفلور ليعانق امه ويطلب منها ان تفي بعض ديونه

فوفتها ... وما عتم الامر ان ذهب الى باريس فاجتمع ببعض اصدقائه . وخشي هجمة الدائنين فعاد الى « جحيمه » البروكسيلي . وبدل ان ينظم في بروكسل سلسلة محاضرات كما توهم ، كتب كراساً هاجم فيه بلجيكا بعنف ، وسخر من البلجيكيين .

وفي شهر اذار من العام ١٨٦٦ فيما هو يزور كنيسة سان لو في نامور ، يرافقه بوله مالاسيس وفليسيان روبس ، سقط على الارض واذا هو معقول اللسان ، مشلول الجهة اليمنى . فحملاه الى بروكسل ووضعاه في احدى العيادات وابلغا انسيل ، الحارس القضائي ، فخف مسرعاً . وابلغت السيدة اوبيك ، وكانت في الثالثة والسبعين من عمرها ، فجاءت باكية لتجتاز آخر مرحلة من جلجلة الامومة .

وفي شهر تموز انتقل الموكب الحزين الى باريس ، ووضع المريض في عيادة الطبيب دوفال بشارع دوم . وبقي الشاعر الذي كتب « زهرات الشر » و « القصائد المنثورة » و « الفراديس الاصطناعية » شهوراً طويلة لايتمتم بسوى هذه الالفاظ : « لا ، كري لا ، لا » حتى وافاه الاجل في ٣١ من اب ١٨٦٧ .

وفي العام ١٨٧١ ماتت كارولين اوبيك في هونفلور . أما جان دوفال فيؤكد نادار أنه رآها في العام ١٨٧٠

تتثاقل متوكئة على عكازتين . ثم كان انهيار الامبراطورية والحصار والكومون ، فلم يهتم احد لمعرفة كيف انتهت عشتروت السوداء وأين ؟ أفي المستشفى أم تحت رصاص الفرسايليين أم في قطيع السوقة المطرود ؟ وما يقال عن جان يقال عن السيدة ساباتيه . فالمرأتان اللتان اشتهرتا في الحياة التعسة التي عاشها بودلير توارتا غير تاركتين أي أثر !

٧

رأيت من واجبي ان ألزم الانصاف التام في التحدث عن حياة بودلير الغرامية . ولا شك ان هذا العمل يبقى ناقصاً اذا لم اجمع بعض آراء في المرأة وردت في منشورات بودلير أو في أوراقه التي لم تنشر . وآمل ان يكون من وراء هذه الآراء فائدة لأنها تثبت أن هذا المريض في اعصابه ، هذا الشاعر الذي كان يفكر في الفن تفكيراً صحيحاً ، لم يكن قادراً في موضوع المرأة إلا على فهم بنات اللذة واللذة .

والواقع أن بودلير لم يعرف الا البغايا من النساء ، والخمارات القذرة من المجتمعات كأنه لم يكن يستطيب إلا الاشياء الزقاقية والفاحشة . وكل فلسفته في الحب قائمة على احتقار الحب وكره المرأة التي يتجسّد هذا الحب فيها . قال : « الحب هو طعم البغاء . » وفي قصيدة «تسبحة الجمال» لا يطلب بودلير من الضمّة الا ان تجعل « الكون أقل بشاعة والزمن أقلّ ثقلاً . » ولكنه لا يفهم إلا الخلجة ، وهذه الاخيرة لا تستطيع بمدتها القصيرة أن تجعل الزمن أقل ثقلاً والكون أقل بشاعة . ويقول بودلير إن « المرأة طبيعية إذن

هي قبيحة ، وهي الى ذلك وضيعة .» ويحتقر الزواج ويمقت الأمومة . ويقول أيضاً : « إن المرأة لا تعرف ان تميّز الروح من الجسد . فهي بلهاء كالبهائم . »

وفي كل مناسبة يتكلف بودلير احتقار النساء ، فاذا صادف منهنّ عند أصدقائه طلب أن يُسقين ويعطين تبغاً ليصمتنَ . وفي احدى الليالي قال لصديق له تزوج حديثاً : « قل لزوجتك الصغيرة ان تذهب الى فراشها فقد مضى الوقت ولا يفيد الحديث مع هذه العصافير اللطيفة . » وفي هذا رائحة حقد العاجز عن الحبّ ، بطل «فياسكو» ساباتيه .

ويذهب بودلير حتى الى استغراب التساهل في دخول النساء الى الكنائس . قال : « بماذا يمكنهن أن يحدثهن الله ؟»

وصفوة القول ان ما كتبه بودلير عن المرأة والحب يدل على أن الشهوة أعمت قلبه . ولكن الى جنب هذا الهذيان نجد أفكاراً يليق جمالها وعمقها بباسكال .

ومما لا شك فيه ان كلمة « حب » على جانب كبير من الالتباس ، وان مسألة العلايق بين الجسديّ والروحي ما ما تزال مطروحة على بساط النقاش . ولكن بودلير اختار السطحي البحت فلم يخطُ اية خطوة في صعيد الحنان ، ولو فعل لانقذ صحته ووجد السعادة والابداع .

قلت في مستهل هذا الكتاب انه كان لبودلير سرّ . وقد

آن لنا ان نتكلم عن هذا السر فنقول ان بودلير قد احب امه . لقد احبها حب العاشق حين كان في السابعة من عمره. وهي المرأة الوحيدة التي شعر بودلير نحوها بعاطفة الحب الاكيد . ولكنها لم تفهمه ولم يكن بامكانها ان تفهمه ، فعرف جميع عذابات الغيرة والحرمان ، وأصيب من جراء ذلك بالشلل العاطفي . وعلى المرأة الاولى التي ملكها جسدياً ترامى بغضب ليقذّر ويتقذر فينتقم من خيانة امه التي استسلمت الى ذراعي رجل آخر . وهذا الولد الذي صور له ان امه قد خانته بقي طول حياته ولداً من هذا القبيل . ولا ريب ان كارولين الطيبة لم تكن مسؤولة عما حل بوحيدها ، بهذا الحبيب البنوي الذي بقي يعذبها اربعين سنة . ولم يكن مجون بودلير واختلاله سوى استمرار لحدائته عقّدته تخيّلات غريبة .

لقد ذكرت جميع اخطائه ووصفت كل ما عاناه من ضروب الشقاء . ولكن هذا لا يمنع كون « ازهار الشر » تتألق تألقاً عجيباً في الشعر الفرنسي . فمن رواسب قذرة تعمل الطبيعة اوراداً جميلة . وبحوادث فاحشة وضلالات محزنة تسمح لبعض الخلق ان يبني قصائد رائعة . ألا فلنشكر بودلير على ما اعطانا ، واذا جرؤنا على اعطاء حكم فلا

ينبغي لنا ان ننسى غفران الموت، ولا الرأفة البشرية، ولا ما يستوجب اللوم في كلٍ منا.

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطابع الاتحاد، بيروت
في ١٢ آب ١٩٤٧

الحب

الذي لا يجرؤ على ذكر اسمه

اقرأ قصة الرائعة في

أوسكار وايلد

أمام القضاء

تأليف : موريس روسنان

تعريب : الياس ابو شبكه

صدر في منشورات دار المكشوف

اطلبه من جميع المكاتب العربية

ثمنه ١٥٠ قرشاً لبنانياً

U.B. LIBRA

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00496397